عبد المتعال محمد الجبري



السيرة النبوية
وأوهام المستشرقين

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠



« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله اضغانهم ٠ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم اعمالكم » ٠

« صدق الله العظيم »



مقدمة

احمدك اللهم لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك ، وأصلى وأسلم وأبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ..

وبعـد ..

فان شر ما تبتلى به شعوبنا الاسلامية المعاصرة استسلامها لدعوى أنها شعوب متخلفة فكريا وحضاريا واقتصاديا ، واكتفاؤها من باقات الاحترام ، بأن يستبدل بالكلمة الدالة على التخلف والجمود نقيضها ، فتسمى بالدول « النامية » .. وهذا بدوره يسلمها الى رفع المستشرقين ، وأمثالهم من علماء ومفكرى الغرب الى مصاف القداسة لأشخاصهم ، ولما يبثونه فى الجماعات البشرية من علومهم وأفكارهم مهما كانت .

وباسم العلم والاستشراق ، شوهت كثير من الحقائق التاريخية ، وفى مقدمتها ما يتصل بتاريخ الرسول محمد ﷺ .

وسوف أتناول فى هذه الدراسة أسلوب المستشرقين الحاقد فى صراحة أو مع الخفاء ، كما تناولت ذكر كتاب السيرة ومترجمى القرآن من المستشرقين . لأن معظم مترجمى القرآن قدموا لذلك بمقدمة عن السيرة النبوية العطرة . وبعضهم كان هدفه من الترجمة للقرآن هو عرض الجانب الفلسفى والايديولوجى ، باعتبار هذا قطاعا هاما فى دراسة تاريخ الرسول وتاريخ الفتوح الاسلامية ، وتحدثت عن بعض من أسلمهم البحث الى الاسلام . وعمن كانوا منصفين للرسول ورسالته فى بعض النواحى ، وعن المهتمين بنشر كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد كاتب الواقدى .

ثم أتناول بيان أهم النقاط المشتركة التى ترددت فى كتب المستشرقين ،

تحريفا للحقيقة ، وابين وجه الحق فيها ٠ ومنها دعوى ان محمدا صانع الاسلام ٠٠ واتهامه بأنه دموى المزاج ٠٠ ودعوى بشرية القرآن ٠٠ وابين اضطراب « بودلى » فى ذلك ٠٠

وسيجد القارىء كثيرا من الشبهات لم تذكر فى هذه الدراسة ، وذلك لذكرى لها فى نقضى لكتاب المستشرق الفرنسى « م ٠ سفارى » الذى افردته بالدراسة ٠

وقد اردت بتقديم هذه الدراسة – فوق تقديم الحقيقة – تدريب من لم يسبروا غور خصوم الاسلام على القراءة الواعية لهؤلاء الخصوم الضاحكين لنا ، وفى قلوبهم منا مرض ٠

والله أسأل ان يوفقنا لما يحبه ويرضاه ٠ ٠

عبد المتعال الجبرى



الفصل الأول

أسلوب المستشرقين وحقدهم

- ماذا يراد بالاستشراق والمستشرقين ؟
- مستشرقو العصور الوسطى .
- بعد منتصف القرن التاسع عشر .
- التجاهل للرسول والرسالة .
- الطعن غير المباشر .

ماذا يراد بالاستشراق والمستشرقين ؟

يراد بالاستشراق دراسة كل شيء عن الشرق ، لغاته القديمة ، ولهجاته الحديثة ، وتاريخه وأساطيره وطباعه ، وعاداته ، وأديانه ، ومعادنه ، وكل ما يتصل به من الناس والحيوان والنبات والمناخ والتربة . ومكونات الشخصية .. وعوامل الفرقة .

ويراد بالمستشرقين أولئك الذين لهم اهتمامات جادة بهذه الدراسات .

● كيف ولد الاستشراق ؟

تسرب الاسلام الى أوروبا فى نهايات القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) عن طريق فتح بلاد الأندلس التى يطلق عليها الآن اسم أسبانيا والبرتغال .

وكان المسلمون قد فتحوا مساجدهم ومجالسهم العلمية لكل من أراد العلم ، والعلم فى عرف المسلمين الأوائل كان يعنى العلوم الشرعية ، والعربية ، والاجتماعية ، والكونية ، والتقنية ، لا يضنون بالفنون الحضارية على أحد من النصارى أو اليهود ، أو غيرهم من البشر ، باعتبار الاسلام رسالة الارتقاء بالانسان ـ أى انسان ـ الى مستوى افضل ، عقليا وماديا ، فكان يفد الى الأندلس كثير من الشباب ، من كافة أنحاء أوروبا ليغترفوا من علوم المسلمين .

واستهوت علوم المسلمين وأخلاقهم وعاداتهم كثيرين من هؤلاء الوافدين الى الاسلام . فخشيت الكنيسة الغربية على مستقبلها ، فعملت على الحيلولة بين الشباب وبين بلاد الأندلس وجامعاتها . وعمدت الى اعداد طائفة من الرهبان والقساوسة لدراسة العلوم الشرقية ـ يعنى الاسلامية وغيرها مما يدرسه أهل المشرق ـ حتى يمكنهم جذب الشباب الى حلقات مماثلة يكون زمامها بيد الكنيسة ، ويمكن من خلالها تشويه صورة الاسلام لدى الدارسين .

ومن ثم كان الارتباط الأول بين العملية الاستشراقية وبين عملية محاربة الاسلام بالكتابة ، والمحاضرة ، والقصة ، والأغنية ٠٠ وسائر وسائل الاعلام ٠

* * *

● أسلوب المستشرقين فى حقدهم :

ان كتابة المستشرقين عن الاسلام ورسوله ـ بوجه عام ـ قد اتجهت اتجاهين :

١ ـ اتجاه كتابهم فى العصور الوسطى ، وهو سافر بالخصومة ، متبجح ٠

٢ ـ واتجاه كتابهم فى العصر الحديث ، وفيه التواء وغموض ، الا ما كان فى كتابة بعض الشيوعيين المعاصرين ، وذلك ابتغاء استرضاء الحزب الشيوعى الداعى الى الالحاد واسقاط كرامة الأنبياء ومنزلة الأديان من القلوب ، وتجرىء للناس على رسل الله ورسالات الأنبياء من هجوم وقح وغير علمى ٠

* * *

● أسلوبهم فى العصور الوسطى :

وفى تلك العصور بدأ عهد الاستشراق ، وقد جنح الكتاب فى تلك الآونة وعلى رأسهم قادتهم من الرهبان والقساوسة يصورون الاسلام ورسوله فى صورة مشوهة ، تقبح الاسلام ورسوله فى نظر القراء ٠

فهى كتابة تستهدف اقامة السدود والأسوار النفسية والوجدانية حول المسيحيين ، حماية لهم من التفكير فى الاسلام والبحث عنه فى مراجعة الأصلية الصحيحة ٠

ويرجع كل هذا التهور والتبجح الى قلة الاطلاع فى الأصل ٠ هذا دا لم يشب ذلك سوء قصد ، لأن الغربى لا يبرح عدوا للشرقى ورقيبا له ٠ والنادر لا يعتد به(١) ٠٠

---

(١) الرد على الأدب الجاهلى ، تأليف شكيب أرسلان ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

وانك لترى هذه العداوة اكثر وضوحا فى بلادهم ، فقد زرت أمريكا وشاهدت على شاشة التلفاز يوما ما يجرى فى الكنيسة يوم الأحد وخارجها . من عرض أفلام تحذر المسيحيين من نهضة علمية عربية تجعلهم قادرين على دك حضارة نيويورك وباريس بالصواريخ العربية الاسلامية .

ودخلت أحد المطاعم فوجدت عند كل منضدة للطعام قد علق بجوارها صورة للدرع الذى كان مستخدما فى الحروب الصليبية وعليه بالرسوم البارزة صور الصليب .

بل ان فيلم أعداء المسيحية الذى عرضه التلفاز عن مخاوف النصارى من اليقظة العربية الاسلامية لا يرى الحل الا فى التعاون مع الشيوعية لمواجهة الاسلام ، وتكثيف عمليات التبشير وسط الشعوب الفقيرة بتربية وتعليم أطفالها منذ سن الحضانة على النصرانية .

وقد جاء فى موسوعة « لاروس » الفرنسية خلال العرض لآراء كتاب المسيحية الى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر نيل وعندما لم يجدوا ما يعيبه ـ اتجهوا الى السباب والكذب ـ فقالوا مثلا : « بقى محمد مع ذلك ساحرا ممعنا فى فساد الخلق . لص نياق . كاردينالا . لم ينجح فى الوصول الى كرسى البابوية فاخترع دينا جديدا لينتقم من زملائه . واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته .

وسيرة باهومية « محمد » تكاد تقيم أدبا من هذا النوع . وقصة محمد التى نشرها رينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه . والتى تتناقض مع الثوابت التاريخية . فقد عرف بالأمانة والصدق وكريم الخلال فى الجاهلية والاسلام .. وكان بعيدا عن كرسى البابوية . وما كان للنصارى فى مكة عدد يذكر .

وفى القرن السابع عشر نظر « بيل » فى تاريخ أبى القرآن نظرة تاريخية . مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه . على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقى والاجتماعى الذى أقامه محمد لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات .

وقال اميل درمنجم الفرنسى فى كتابه « حياة محمد » (ص ١٣٥ وما بعدها) : « لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم ـ بطبيعة الحال ـ وازدادت حدة . ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أشد الخلاف . فمن البيزنطيين من أوقروا الاسلام احتقارا من غير أن يكلفوا انفسهم ـ فيما خلا « جان داماسين » ـ مؤونة دراسته . ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمى الأندلس الا بأسخف المثالب ، فقد زعموا أن محمدا لص نياق ، وزعموه متهالكا على النهو ، رزعموه ساحرا ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قسا رومانيا مغيظا محنقا أن لم ينتخب لكرسى البابوية .. وحسبه بعضهم الهـا زائفا يقرب له عباده الضحايا البشرية .

وان « جبيردنوجن » نفسه ـ وهو رجل جد ـ ليفقد توازنه ـ فيذكر 'ن محمدا مات فى نوبة سكر بين ، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث ، وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان(٢) .

« وذهبت الأغنيات الى حد أن جعلت محمدا صنما من ذهب ، وجعلت المساجد الاسلامية برابى ملأى بالتماثيل والصور . وقد تحدث واضع أغنية « أنطاكية » حديث من رأى صنم « ماحوم » مصوعا من ذهب ومن فضة خالصين ، وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما أغنية « رولان » التى تصور فرسان « شارلمان » يحطمون الأوثـان الاسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثا مكونا من : ترفاجان ، وماهوم ، وأبولون . وتحسب « قصة محمد » أن الاسلام يبيح للمراة تعدد الأزواج » (٣) .

---

(٢) هذه صورة تنم عن الجهل المطبق لأن تحريم الخمر ولحم الخنزير كان فى عهد النبى وهو الذى أخبرنا بتحريم الله لهما . ولم يحرمهمـا المسلمون من بعده . وفى القرآن آيات التحريم **« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »** (المـائدة : ٣) .

(٣) أرايت كيف يتعاون الفنانون فى تشويه سيرة الرسول ودينـه فيما يضعونه من اغان ؟

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ « رودلف دلوهيم » الى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز ، وفيفس ، ومرانشى ، وهوتنجر ، وبيلياندر ، وبريدو وغيرهم ، فوصفوا محمدا بأنه دجال ، والاسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها ، وأنه من عمل الشيطان ، ووصفوا المسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيج من السخافات . وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجد فى أمر هذا مبلغ سخافته .

« ومع ذلك فان بيير باسكال من الذين توسعوا فى الدراسات الاسلامية فى القرن الرابع عشر . ومن قبله بيير المحترم « فنرابل » مؤلف أول رسالة غربية ضد الاسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر الى اللاتينية . وقد وصف انوسان الثامن محمدا يوما بأنه « عدو المسيح » أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمدا الا هرطيقا (٤) . وكان لـ «ريمون ليون » فى القرن الرابع عشر ، ولـ « غليوم بستل » فى القرن السادس عشر و لـ « رولان » و « جانييه » فى القرن الثامن عشر ، وللقسيس «دبرجلى» و لـ « رينان » فى القرن التاسع عشر آراء واحكام مختلفة . على أن الكونت بولنفلييه وشول كوسان دبرسفال ودوزى سبرنجر وبارتلمى سانتيلير ودكاسترى وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الاجمال ــ انصافا للاسلام ونبيه . ويشيدون ــ فى بعض الأحيان ــ بهما . مع ذلك فان دورتى يتحدث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد الصادق العف النظيف فيقول نقيض هذا فى أسلوب سباب ، لا علم ، كما طعن عليه « فوستر » من قبل ذلك سنة ١٨٢٢ . وما يزال للاسلام حتى اليوم محاربون متحمسون » .

***

● **مرد الخصومة :**

ومرد هذه الخصومة بين الاسلام والمسيحية راجع الى جهل الغرب بحقيقة الاسلام ، وبسيرة النبى ﷺ .

كما ان حماة المسيحية حين شعروا بأنها دين لا يوائم طبيعة الغرب

---

(٤) الهرطيق : المجادل المتفلسف ــ والهرطقة : الجدل غير المثمر ، والمغالطات ، والجدل بالباطل .

الذى عاش ألوف السنين على تعدد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير(٥) والضنك وسوء الحال . وحين احسوا بأن الغرب سيفلت من المسيحية الى أقرب دين للفطرة وهو الاسلام ، أسرعوا الى محاربته وأسرفوا أيما اسراف ، وأرادوا أن يسقطوا عن نفس الشخصية المسيحية عار سقوط هرقل وحضارته تحت سنابك الخيل(٦) الاسلامية بافتراء الانحطاط وشتى المثالب(٧) على محمد ورسالته وأتباعه ـ دفاعا لا شعوريا عن النفس ، ونتيجة لمركب عقدة الاستخذاء والغـرور والجهـل ، فكان ما رأيناه من العـداء السـافر فى الأغانى ، والعظة الأسبوعية ، والقصة ، والتأليف التاريخى .

وقد أدى هذا اللون من الكتابة نتائجه فى صفوف الغربيين ، اذ صرفهم عن دراسة الاسلام والتفكير فيه . وجمد العوام على مسيحيتهم ، ووجه الباحثين عن الروح(٨) الروحى والهدوء النفسى وناشدى(٩) فىء السعادة وبردها بعيدا عن لهب الصراع المادى الدائر الرحى ـ الى الديانات الهندية والصينية بعيـدا عن الروحانية المسـيحية التى أصبحت فى قفص الاتهـام بعد كثرة الانشقاقات المذهبيـة والثورات الاصـلاحية فظهرت « الثيوزوفية » على يد مدام بلافاتسكى . وقد اقتبستها من البوذية وسيلة للاخاء العالمى . وما لبثت أن أصبحت مذاهب ثلاثة عقب موتها(١٠) واستغل المستعمر العامة نتيجة هذه المفتريات لغزو العالم الاسلامى .

على أن هـذا الأسلوب لم يكن ذا أثر سىء ـ بصورة عامة ـ عند المسلمين الذين لا يقرأون هذه المفتريات ، بل ولا عند القلة الذين أتيح لهم أن يستمعوا لها أو يقرأوها ، ذلك لأن الايمان المستقر بين جوانحهم ما كانت لتزحزحه مفتريات باطلة لا دليل عليها ، بل ان الاغراق فى الافتراءات

---

(٥) شدة البرد .
(٦) السنبك ـ بضم السين والباء ـ : طرف الحافر .
(٧) العايب .
(٨) الروح ـ بفتح الراء ـ : الراحة والنسيم .
(٩) طلاب ، والباحثون عن ....
(١٠) حياة محمد . ط ٢ ص ٣٠١٢ .

على الاسلام ورسوله بعث فى بعض المستشرقين طموحا الى تبوأ مراكز ريادة حرية البحث وحريه الكلمة فأخذوا يكتبون عن بعض الحقائق المشرقة فى جوانب الاسلام وتاريخ الرسالة ، ولم يذروا استرضاء الجماهير المتعصبة فكان لهم من الغمزات واللمزات شىء يقل أو يكثر حسب حاجة الكاتب الى رواج بضاعته . واشد المستشرقين حدة وحقدا على الاسلام ورسوله وتاريخه الفرنسيون والكاثوليك الذين تحتضنهم فى العالم جمهورية فرنسا ، ومن أشهرهم أرنست رينان وكيمون وهانوتو وفولتير ، وهم بعد عصر النهضة .

ومن هؤلاء السافرين بالخصومة والافتراء :

١ ـ المستشرق « كازيميرسكى » الذى تولى الرد عليه الأستاذ أبو الوفا محمد درويش .

٢ ـ والمستشرقة الآنسة « لورا هيلين سوبريدج » الانجليزية فى كتابها « أحلام المراة ورسالتها » . وقد كتب مقدمته أسقف لندن ، ومنهم المستر « كاش » فى كتابه « العالم الاسلامى فى ثورة » ، وقد زعم فيه اننا نحن المسلمين نضفى على محمد صلى الله عليه وسلم ـ مسحة مسيحية ، وقد تولى الرد عليه العلامة « خ . كمال الدين » فى كتابه « المثل الأعلى فى الأنبياء » ، وقد ترجمه « أمين محمود الشريف » .

٣ ـ ومنهم المستشرق اليهودى « داود صمويل مرجليوث » المتوفى عام ١٩٤٠ .

٤ ـ ومنهم « م . سفارى » الذى تابعت نقد مفترياته فى صلب كتابه « مختصر حياة محمد » فى هذه الدراسة . وغير هؤلاء كثيرون .. وأمثالهم فى عصرنا هذا كثيرون ولكنهم لا يستعلنون فى المجتمعات الاسلامية بمفترياتهم الا عندما يحسون بضعف المجتمع المسلم سياسيا واقتصاديا وعسكريا وعلميا كما حدث أخيرا فى اندونيسيا . وعندما يسقط الحكم فى قبضة حكام ضعاف العقيدة أو الذمم ، أو فاقدى التصور الاسلامى .

***

● **بعد منتصف القرن التاسع عشر :**

وبعد عصر النهضة كانت يقظة فكرية ، وكان حرص على تقصى الحقائق واكتشاف المجهول من الآثار سواء المطمور تحت الأرض من النقوش والعاديات كالتى تولاها من سموا علماء الآثار ، أو المسطور المغمور المطروح فى آفاق النسيان ، أو فى زوايا الاهمال بالزوايا أو التكايا ومكتبات الأفراد • من نوادر المخطوطات المبعثرة فى العالم الاسلامى جميعه مكتوبا بالعربية أو الفارسية أو الهندية أو التركية •

وهؤلاء المنقبون من أمثال « جوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » ، و « دوزى » فى كتابه « الاسلام فى الأندلس » و « سيديو » فى كتابه « فضل العرب على الحضارة الأوروبية فى القرن التاسع عشر » و « كارليل » فى كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ، وقد اتجه اتجاهه وعلى منهجه « هجنز » و « بفونبرت » و « بوزورث سيمث » فى انجلترا و « كرهل » و « وجريمنس » فى ألمانيا ، ومثلهم « اللورد هدلى » الملقب بـ « سيف الرحمن رحمة الله فاروق » الذى أسلم ، وتوفى عام ١٩٣٥ ، ومستر « كاش » • والكاتب الايطالى « كيتانى » الذى هدم الدعاوى المتكررة التى يحتج بها علماء النصارى على الاسلام •• هؤلاء غالبا ما كان يدفعهم الى البحث وقول كلمة الحق الا الرغبة فى اظهار معلومات مجهولة هى فى عداد الآثار ، ويغيبة عن ورثة أهل هذه الآثار والكنوز الفكرية المطمورة ، فقد مات أبطالها وخلفوا من بعدهم ذرية ضعفاء فى مجتمعات أصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، ثم لأن جل هؤلاء الباحثين ـ الا من أسلموا ـ كانوا متحللين من الأديان ثائرين عليها ، فهم يدرسونها للعلم وحده •• ولم يدر بخلدهم أن ما يكتبون سيصل يوما الى المسلمين ، فيكون شهادة من أعداء الاسلام لمجدهم الغابر ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، فيعتزون بهذه الشهادات ، وينشرونها لتحمى الشخصية الاسلامية من التمزق ، والاحساس بالضياع والخيبة ، ولتحمى الشخصية الاسلامية كذلك من الشعور بالنقص شعورا أودى بالبعض الى الهاوية ، والقى بهم فى مهامة التقليد للفرنجة حتى كفروا بأنفسهم وبتقاليدهم وأمتهم ، ورضوا

لأنفسهم أن يكونوا آلات ومطايا للغربيين ، بدلا من أن يكونوا ذوى كرامة شخصية وقومية ـ غدوا أبواق الاستعمار والصليبية والصهيونية ٠

لقد تجلى أخطر دور لعبه المستشرقون فى حرب الاسلام عمليا فى بناء المدارس التى يعلمون فيها الناشئة من أبناء المسلمين ، واستغلال مهنة الطب والتمريض ، وعايشوا المسلمين العرب فى بلادهم ، فكانوا يحببون اليهم حضارة أوروبا الزائفة ، ويدعون الى الاختلاط والتبرج والانحلال ٠ وينشرون المذاهب الهجينة كالصليبية والعلمانية والوجودية ، ومن افتتن بهم لقنوه انكار نبوة محمد ﷺ ونبذ الاسلام والتشكيك فى القرآن ٠ ولسنا نجد مؤلفا مسلما ارتد عن دينه الا وله صلة بالصليبيين(١١) ٠

ثم خلف من بعدهم خلف أرادوا حرب الفكر الاسلامى بصور خفية مدروسة ، وكأن لهذا أساليب شتى ، ليس هنا مجال دراستها ، فموضعها كتابنا « الاستشراق وجه جديد للحروب الصليبية » ٠

* * *

● **التجاهل للرسول والرسالة :**

كثيرا ما تجاهل كبار الكتاب الغربيين ـ فى مواقف العظمة ـ المقارنة بين شعوب ، أو أديان ، أو فلسفات ٠ قد يكون للاسلام فيها رأى ٠ ويلاحظ أنهم لا يكتبون الا القليل والتافه عن الاسلام والرسول ، حتى يبدو الدين غير جدير بالوقوف عنده ٠

فمثلا : الكاتب الأمريكى « ف ٠ س ٠ ك ٠ نوثورب » فى دراسته التى سماها « بحث فى تفهم العالم » لم يتناول العرب والمسلمين بالذكر الا فى اثنتى عشرة صفحة فقط من ٤٩٦ صفحة ، مع أن المسلمين والعرب يمثلون سبع العالم ٠

وكذا المؤرخ « برتراند رسل » فى كتابه « تاريخ الفلسفة العربية » لم

---

(١١) محمد النايف فى « دراسات فى السيرة » بمجلة المجتمع العدد ٢٣٩ ـ صفر ١٣٩٥ هـ ـ مارس ١٩٧٥ م ٠

يخصص للاسلام ونبيه منه الا ١٦ صفحة متفرقة من مجموع صفحات الكتاب التى يبلغ عددها ٨١٦ صفحة(١٢) .

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ، ليتسع المجال لتصوير النبى « محمد » عليه الصلاة والسلام ، خلاف صورته التاريخية ، وتتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وأحرقت نسخه العربية فى البندقية سنة ١٣٥٠ م ، وحرم بابا الاسكندرية طبعه وترجمته .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت ترجمات القرآن تشفع بمقدمات ، أو تعليقات ، أو تذييلات للرد على القرآن ، أو تجريح النبى صلى الله عليه وسلم (١٣) .

وتقع الموسوعة الأمريكية التى تدعى«كوميتون بريكتور اينسيكلوبيديا» فى خمسة عشر مجلدا (طبعة ١٩٦٦) ، وقد أوردت معلومات عن الاسلام باعتباره دينا فى ٧½ أسطر فقط مع رسم لمئذنة مصرية قديمة ، فى حين أن الموسوعة نفسها أوردت اربع صفحات كاملة من القطع الكبير عن اليهودية ، مع رسوم بيانية واضحة ، وعن اسرائيل أوردت ثلاث صفحات تقريبا ، مع خرائط ورسوم بيانية .

أما عن لبنان فقد وقعت أحداث ثورة ١٩٥٨ ، وذكرت جنود الأسطول الأمريكى السادس ونشرت دبابات أمريكية أمام فندق سان جورج كمعلم من معالم البلد الرئيسية .

* * *

● الالحاد والتشكيك فى النبوات :

ومن المستشرقين ملاحدة يكفرون بالأديان وبالرسل جملة ، فمهاجمتهم للرسول محمد ﷺ ليست الا بغية التجريح لمبدأ « ديانة ورسل واله للعالمين » ، لا البحث عن الحقيقة التاريخية أو العلمية ، فهم ينكرون عيسى ويتهمونه بالجنون ، بل ويقولون انه وأمثاله : كموسى وهارون وسليمان وداوود أشخاص غير تاريخيين .

---

(١٢) الطبعة الثالثة ، لندن سنة ١٩٤٨ .

(١٣) المستشرقون والاسلام ص ١٢٨ .

ومن هؤلاء الشاعر المشهور « فولتير » الذى هاجم الكهنة واتهمهم بالوثنية فى مسرحيته الأولى التى اشتهرت باسم « أوديب » عام ١٧١٨ ، ثم هاجم الأنبياء فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم بمسرحيته « التعصب » عام ١٧٤١ وأهداها الى البابا « بنوا الرابع عشر » للتمويه بأنه لا يريد الا محاربة محمد وحده كما قال النقاد ، ولكن اختياره لشخص محمد من بين الأنبياء ـ وما أكثر أنبياء بنى اسرائيل ـ يشير الى كامن مزيد من احتقاره للاسلام ورسوله .

والعجب أن نرى باكستانيا فى ندوة اسلامية عقدت فى لاهور فى نهاية ديسمبر ١٩٥٧ ويناير ١٩٥٨ وقد وقف ينكر النبوات وبخاصة نبوة محمد ﷺ زاعما أنه كان يعلم قصص الأنبياء ممن كانوا فى الجزيره من النصارى واليهود (١٤) ... وقد جهل الباكستانى ـ أو كفر ـ بقوله تعالى عن قصص القرآن « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن** » (١٥) . وقوله سبحانه: « **ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك** » (١٦) . وقوله : « **ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** » (١٧) ، كما انكر الباكستانى اختصاص الوحى بالأنبياء ، وجهل أن الوحى بمعنى الالهام معنى لغوى كالهام الحيوان ما فيه صلاح حياته ومعاشه ، وأما الوحى السماوى فاصطلاح شرعى انفرد به الأنبياء « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا** » (١٨) .

ويلح المستشرقون على نزع ثوب النبوة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والباسه ثوب البشرية فى صورتها الحيوانية الدنيا لأدنى مناسبة ، وبصورة خفية كما سنرى فى حديث « سفارى » عن كتاب هرقل وعن وساطة أبى سفيان فى فتح مكة . وفى المؤاخاة بعد الهجرة ، وفى زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وكما فى تصوير « سفارى » لأمهات المؤمنين عند ذكره زواج ريحانة رضى الله عنها .

---

(١٤) المستشرقون والاسلام ص ٥٨٥ .

(١٥) يوسف : ٣ .

(١٦) آل عمران : ٤٤ .

(١٧) هود : ٤٩ .

(١٨) الشورى : ٥١ .

وهذا التشكيك تسرب الى كل المقررات الاسلامية ، حتى الأمجاد التاريخية التى اطمأنت بها واليها قلوب المسلمين ، وقد جرى تلامذة المستشرقين فى هذا المضمار شوطا كبيرا ، تلمح هذا فيما كتبه طه حسين ، وعلى سبيل المثال فى كتاب الشيخان يقول : « وأكاد اجزم ، وانى لأشك » ـ الى آخر هذه العبارات الماكرة لزلزلة اليقين .

* * *

● **الطعن غير المباشر :**

قد يعمد المستشرق الىالكتابة عن محمد ﷺ ورسالته تحت عنوان دراسة مغايرة لموضوع « محمد ورسالته » ولكنه ينزلق الى الموضوع الأدنى ملابسة ، فمثلا المستشرق الروسى « اغناطيوس كراتشكوفسكى » فى كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب» الذى ترجمه الدكتور صلاح الدين هاشم ونشرته الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية يقول : « ان القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع وهى تمثل نموذجا عاما لمستوى الثقافة العام فى هذا المجال »(١٩) . ولا شك ان كلامه باطل لأمور :

أولا : لأن دارس القرآن يرى فيه معلومات هى اجابة عن أسئلة جهلها العرب « **ويسألونك عن الروح ..** » (٢٠) ، « **ويسألونك عن الجبال** » (٢١) ، « **يسألونك عن الأهلة ..** »(٢٢) ، « **يسألونك ماذا ينفقون** »(٢٣) ، « **يسألونك ماذا أحل لهم ..** »(٢٤) ، « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ..** »(٢٥) .

ثانيا : لأن بعض العرب لم يكونوا على مستوى ادراك النصوص القرآنية ، فكانت تنزل الآيات تبسط شرح المراد بسبب انخفاض مستواهم

---

(١٩) المرجع السابق ص ١٨٦ .
(٢٠) الاسراء : ٨٥ .
(٢١) طه : ١٠٥
(٢٢) البقرة : ١٨٩ .
(٢٣) البقرة : ٢١٥ .
(٢٤) المائدة : ٤ .
(٢٥) النساء : ١٧٦ .

عن مستوى اللغة القرآنية ، كالرجل الذى لم يفهم المراد من قوله تعالى : **« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود »(٢٦)** ، فنزل قوله سبحانه : **« من الفجر »** ليبين أن لفظ الخيط كناية عن الليل والنهار وليس حقيقة العقال الأبيض والأسود .

ثالثا : لأنه لو كانت هذه المعلومات القرآنية فى مستوى الثقافة العامة لكان المتعلمون وكتاب ديوان كسرى وقيصر والرهبان ، اقدر على صوغ كتاب أرفع من القرآن وأغزر مادة ـ بفضل امتياز التعلم على الأمية التى كان عليها محمد رسول الله ـ ولكن هذا هو ما لم يحدث بالرغم من المعارضة للنبى ، ومن تحديه نكافة الناس أن يأتوا بقرآن مثله ..

وهكذا كان « اغناطيوس » يذكر المعلومات الفنية ويخلطها بأخرى تزرع الشكوك فى أن القرآن وحى من الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ـ والمستشرق ـ بحسبه أن يجعل فى الكتاب كله نقطة أو نقطتين من السم غارقتين فى العسل ، لأنهم لا يصدرون كتابا واحدا ، وانما يصدرون بالمئات توزع فيها السموم المنوعة .. فتترسب فى المجتمع الاسلامى شيئا فشيئا حتى تمسى ركاما من الضباب الحاجب عن رؤية الحقيقة الاسلامية .

وقد أثار الكاتب انتباه قرائه الى أن بالقرآن مصطلحات جغرافية موجودة بالكتب السماوية السابقة ، ليوقع فى الروع أنه مسروق منها ، وتناسى أن القرآن نفسه قال عن ذاته **« مصدقا لما بين يديه من الكتاب »**(٢٧) ، بل ان المنطق السليم ليوجب فى هذه الحالة أن نقول : ان تشابه النصوص فى الاسلام والأديان قبله دليل على أن الدين من عند الله وأن الاسلام دين حق لأن الله يقول : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى »**(٢٨) .

واذا كان الله قد تكفل بأرزاق الناس وجعلهم شركاء فى رزق أجسامهم . فهل يفرق ـ سبحانه ـ بينهم فى رزق الروح وغذائها . هذا

---

(٢٦) البقرة : ١٨٧ .
(٢٧) المائدة : ٤٨ .
(٢٨) الشورى : ١٣ .

اذا سلمنا بأوجه الشبه ـ وما أقلها .. وما أكثر ما خالف فيه القرآن الكتاب المقدس خلافا جذريا .

وفى سورة يوسف عليه السلام أمثلة كثيرة خالف فيها القرآن التوراة تعد بالعشرات قد استقصاها مالك نبى المفكر الجزائرى رحمه الله فى كتابه « الظاهرة القرآنية » فالتوراة مثلا قالت : ان اخوة يوسف ركبوا الحمير الى مصر ، بينما القرآن تحدث عن العير فى الرحلة .. وهى سفينة الصحراء فى مثل هذه الأسفار الصحراوية الطويلة . . وغير ذلك كثير .



الفصل الثاني

مترجمو القرآن وكتاب السيرة

- كتاب السيرة ومترجمو القرآن .
- اشهر كتاب السيرة .
- مستشرقون أسلموا .
- طبيعة كتابة المسيحى .
- المهتمون بالطبقات الكبرى .

كتـاب السـيرة ومترجمو القـرآن

● لماذا اهتموا بالتاريخ والسيرة ؟

اهتم كثير من المستشرقين بالتاريخ الاسلامى ، وبخاصة سيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك لاعتبارات كثيرة .

وفى مقدمة تلك الاعتبارات أن التاريخ يمنحنا القدرة على تصور مسار الحركة الاسلامية ، ويوقفنا على أسباب المد والجزر فى محيط الفتح الاسلامى ، فمن كان مؤمنا استطاع أن ينتفع بالتاريخ فى ربط حاضره بماضيه ، متجنبا العوائق ، ومن كان خصما للاسلام عرف بدراسته للتاريخ الاسلامى من أين تؤكل الكتف فى غزوه للعالم الاسلامى ، ومواجهته لدين الاسلام ، وهذا ما حدا بمعهد الاستشراق بالجامعة العبرية التى اسست عام ١٩٢٥ الى الحض على اصدار « أنساب الأشراف » للبلاذرى .. وحدا بعلماء الاسلام القدماء الى اعتبار دراسة التاريخ الاسلامى بوجه خاص ، والتاريخ العام بوجه عام من العلوم الشرعية ، وحدا بالامام حسن البنا فى المعسكر الريادى الكشفى الذى اقامه حوالى سنة ١٩٣٨ بالدخيلة فى الاسكندرية لتربية كوادر للدعوة الى أن يجعل من بين البرنامج : دراسة لتاريخ الصراع السياسى بين الغرب والدول الاسلامية ، يقوم بالقائها الامام نفسه ، الى جانب حلقات التفسير والتأمل فى القرآن الذى يتلوه فى الصلاة بما فيه من قصص وتشريعات ، ويجعل للمشكلة الفلسطينية حلقات يتولى أمرها مندوب الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر .. وقائد حركة تحرير فلسطين من براثن الانجليز واليهود .. وذلك لأهمية التاريخ .

* * *

● لماذا اهتموا بالترجمة للقرآن ؟

وبما أن القرآن أصدق كتاب صور حياة النبى محمد ﷺ ، وصور طبيعة التكوين للمجتمع الاسلامى الفاتح ، كما سجل المبادىء التى على

أساسها أقيم البنيان الاسلامى ، فقد عنى بترجمته الى غير العربية كثيرون من المستشرقين والقساوسة . ومعظم هذه الترجمات فيها مغالطات ، وبين يدى العديد من هذه الترجمات تلخيص واف لسيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام أو للنظم الاسلامية .

بل ان هذه الترجمات كثيرا ما تسمى خطأ باسم « قرآن محمد » وما هو بقرآن محمد ، وانما هو قرآن كريم لرب العالمين ، وبعضهم يسميه كذلك باعتباره منهج حياة الرسول وفلسفته فى الحياة .. وهؤلاء بهذا الاعتبار يقتربون من الحقيقة التى تروى فى كتب السنة عن عبد الله ابن الزبير بن العوام عندما سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قائلا : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : أما قرأت القرآن ؟ قال : بلى .. قرأته ، قالت : كان خلقه القرآن .

* * *

● ترجمة مختارات :

وبعض هذه الترجمات ترجمات لسور كسورة يوسف عليه السلام ويسميها المترجم « قصة يوسف » كـ«توماس ايربينى» ، أو لجزء أو اكثر من القرآن ـ أو لبعض المختارات الموضوعية ، وممن فعل ذلك « ادوارد مونتيه » و « ر . دوزى » و « ج . س . ماردروس » ، وقد ترجم ٦٢ سورة ، و « هنرى بيريس » و « هنرى مرسييه » .

ومن المقتطفات الموضوعية ما ترجمه « ج . بارتيليمى سانت هيلبر » ـ وهو مستشرق فرنسى ـ تحت عنوان : « محمد والقرآن » ، وبه الآيات المختارة مجموعة طبقا للموضوعات ، وقد طبع سنة ١٨٦٥ . كما قام المستشرق « لابوم » بترجمة للآيات رتبها موضوعيا كذلك بصورة أوسع ، وقد اعتمد فى ترجمته على ترجمة القرآن لـ « كازيميرسكى » .

ومن مترجمى مختارات من القرآن كذلك « توماس باللنتاين أيرفنج » فى ١٧١ صفحة ، وكذلك ممن ترجموا القرآن حسب اختيارهم « سير وليم موير » له ترجمة بالانجليزية لسبعة أجزاء(١) .

---

(١) طبعت فى لندن سنة ١٨٨٠ و سنة ١٨٨٢

وكذا مختـارات من القـرآن لـ « ادوارد وليـام لين » ، بترتيب موضوعى مع تفسيرات متداخلة مع الترجمة ٠

ومختارات بعنوان : « القرآن » ترجمة « ماتن ك ٠ شيرمر هورن »٠

ومختارات من القرآن لـ « جون مردوك » ، سبقت الترجمة بمقدمة ومذكرات شارحة ٠٠ وقد طبع عامى ١٨٩٦ ، ١٩٠٢ لحساب جمعية الأدب المسيحى فى لندن ٠

وهناك «جوهر القرآن» ترجمة لمقتطفات قام بها«تيودور ماكسيليان»، و « فون كيلار » ، وكذلك « القرآن المختصر » لـ « جورج ماميشيشولانسا »

ومختارات من القرآن ، والقرآن مفسرا (فى مجلدين) ترجمة « ا ٠ ج ٠ أربيرى » ، وسور مختارة من القرآن لـ « آرثر جيفرى » فى ٢٣٢ صفحة ودين القرآن ، لـ « آرثر وولاستون » فى ٧٠ صفحة ـ وأخلاقيات الشرق مستخلصة من قرآن محمد لـ « جوزيفوس تيلا » ، وهى مقتطفات مرتبة بالحروف الأبجدية حسب الموضوعات ، وهى فى ٩٦ صفحة ، وقد طبعت فى لندن عامى ١٧٦٦ ، ١٨١٨ ٠

* * *

● ترجمات حسب توقيت النزول :

ومن هذه الترجمات ترجمة للسور حسب ما اشتهر عن تاريخ نزولها ٠ تبدأ مثلا بسورة العلق ، ثم القلم ثم المزمل ثم المدثر حتى تكون آخر السور نزولا وهى سورة التوبة ـ حسبما قال جمهور كتاب علوم القرآن ٠

وممن قاموا بالترجمة على ترتيب النزول ـ لا ترتيب المصحف ـ « ج٠م برودول » ـ وترجمته سماها « القرآن » ٠ وكانت أول طبعة له فى لندن وأدنبرة سنة ١٨٦١ ثم أعيد طبعه منقحا فى لندن عام ١٨٧٦ و ١٩٠٩ و ١٩١١ و ١٩١٣ و ١٩١٥ و ١٩١٨ و ١٩٢١ و ١٩٢٤ و ١٩٣٧ ـ كما طبع فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٩ ثم فى نيويورك عام ١٩١٨ ،

وكذلك سار فى هذا الاتجاه « هـ · جريمه H. Grime » ونادى بذلك المنهج « نولدكه » من قبل ، وتبعته محاولة « وليم موير W. Mur » فى كتابه « حياة محمد » ، حيث قسم المراحل القرآنية الى ست مراحل ، خمس منها فى مكة ، ثم محاولة « ويل Well » وقد قسم المراحل القرآنية الى أربع ، ثلاث منها فى مكة ، كما تأثر بهذه الطريقة كل من « رودول Rodwell » و « بلاشير » .

وقد تابعهم فى هذا المنهج ميرزا ابو الفصل فى ترجمته التى طبعت فى « الله آباد » بالهند سنة ١٩١١ و ١٩١٢ الخ ، ثم كانت الطبعة الرابعة فى بومباى بالهند عام ١٩٥٥ ، وكذلك المستشرق « ريتشارد بل » الذى طبعت ترجمته للقرآن حسب ترتيب النزول عام ١٩٣٧ و ١٩٣٩ فى أدنبرة .

وقد سلك « عزت دروزه » فى تفسيره للقرآن الكريم مسلك المستشرقين فى ترجمتهم معانى القرآن حسب ترتيب نزول السور ، وقابلنى فى مصر بعض المعاصرين كانوا يفكرون فى طبع القرآن بالعربية حسب ترتيب النزول - وهم فى برنامجهم الثقافى يحفظون أو يقرأون على هذا المنهج .

وهذا المنهج طريف غير انه يخالف القول الراجح الذى عليه جمهور علماء المسلمين من ان ترتيب السور حسب ما هى عليه فى المصحف انما هو أمر توقيفى . اى ان الله هو الذى أوقف رسوله على الترتيب الذى يراعى فى كتابة المصحف ، ونزل بذلك جبريل الى النبى عليهما السلام - ثم ان عثمان بن عفان ترك لنا المصحف بترتيب السور المعروف الذى اجمع عليه الصحابة ، وارتضوا الأمر باحراق ما ليس عليه هذا الاجماع من الصحف التى عند الآخرين .. او ان تراجع على المصحف الامام ، اى الذى كان عليه الاجماع فى عهد سيدنا عثمان . وهو هو الذى كان عليه الاجماع فى عهدى أبو بكر وعمر ، وهو الذى كان محفوظا عند أم المؤمنين حفصة .

كما أن ترتيب سور المصحف المعروف الآن لا يختلف فيه اثنان ، انما يقع الاختلاف فى ترتيب النزول وأسباب النزول أحيانا ، ولو أنها قليلة .

ثم اننى عندما اتخذت منهجى فى تفسير القرآن ، جعلت من قواعده تأمل وضع السورة بين السورة التى قبلها والتى بعدها حسب ترتيب النزول ، فان ذلك يساعدنى على معرفة الجو الطبيعى الذى نزلت فيه السورة ، وتلاحم المواقف المختلفة للحركة الاسلامية وتتابعها ، كما يلقى الأضواء على الآيات والأحكام والأخبار .. وتعطينا الاتجاه الذى تسير فيه السورة .. ولكن مع ذلك فانه يجب تأمل المناسبة التى تربط السورة بما قبلها وبما بعدها فى المصحف ، فان هذا أيضا يعطى المزيد من الأضواء الكاشفة . لما فى السورة من أحكام وأخبار وأهداف تربوية ، اذ انها أيضا فى ترتيب المصحف ذات علاقات وثيقة ، ويمهد ما قبل السورة للسورة ، وما بعدها مرتبط بها ـ فقد لوحظ تمام الارتباط واحكامه ، سواء اذا لاحظنا ترتيب المصحف أو ترتيب النزول ... كما لاحظت مع تمام الارتباط تمام التطابق بين الطريقين : طريق دراسة التناسب طبقا للمصحف كما عليه الأقدمون ، وطريقة دراسة التناسب طبقا لترتيب زمن النزول كما عليه بعض المحدثين من المستشرقين والعرب المستغربين .

* * *

● دراسات حول القرآن :

قام المستشرق جوستاف فلوجل بدراسات من شأنها تيسير دراسة القرآن مثل : « تفصيل آيات الذكر الحكيم » وهو تبويب لموضوعات القرآن وآياته ، وقد ترجمه الى العربية الأخ الكريم «محمد فؤاد عبد الباقى» رحمه الله . ومثل فهرست كلمات القرآن وكلمات السنة ، وهناك دراسات عن التفسير واصوله مثل « مقدمة القرآن » للمستشرق « ر . بل » وأبحاث عن القرآن مع مختارات منه مترجمة بالانجليزية لـ « هنرى بريزد فيل سميث » ومقتطفات فى كتاب « بحث فى التشريع الاسلامى » لمؤلفه « ش . جيللوت » .

* * *

● دراسة موسيقى القرآن واعتباره شعرا :

ان المستمع الى القرآن يتلى فى خشوع مع الالتزام بالأداء الشرعى للتلاوة الذى يسمى ترتيل القرآن كما كان يسمى قديما « تجويد القرآن »

بمعنى قراءة القرآن باخراج الحروف من مخارجها مع التزام قواعد المد والغن (بالغين) والاخفاء والادغام والاقلاب والاظهار ، والقلقلة والهمس. وقواعد الوقف وأحكامه من وقف لازم أو ممتنع أو جائز .. أو جائز والأولى الوصل أم الأولى الوقف ، ان المستمع الى القرآن يتلى فى خشوع مع الالتزام بالأداء الشرعى الذى لخصنا معالمه .. يجد للقرآن ايقاعا ، أو يجد له وقعا فى نفسه حتى ولو لم يكن مسلما ، سمعه صناديد كفار قريش فقال أحدهم حين عوتب على تسلله ليلا للاستماع الى القرآن يتلوه الرسول - وهو زعيم جبهة المعارضة للاسلام - قيل له كيف تفعل ذلك وأنت هو من أنت ؟ فقال يصف القرآن وتأثيره عليه : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وما هو من قول البشر . قيل له : أصبأت ؟ قال : لا ، ولكنى أقول ما أجده فى نفس ..

وسمعه أحد الألمان من أخ مسلم - أو قل ان شئت - أخ مهاجر من طغيان رئيس مصر الأسبق جمال عبد الناصر ..

فأنصت حتى فرغ من صلاته .. ثم طلب منه أن يتلو ما كان قد سمعه فى صلاته بنفس الأداء فأعاد التلاوة ، ثم استعاده التلاوة للمرة الثالثة ، وكان المستمع « موسيقارا كبيرا » فقال : ما ينبغى لهذا الكتاب بكل الألحان التى جمعها فى نسق فريد الا أن يكون كتاب السماء المعجز .. وكان ذلك مدخلا الى اعتناقه الاسلام .. وهكذا حكى لى نفس هذه القصة عن رجل آخر بأمريكا الشمالية ، ووجدت فى استطلاع عملته لغير الناطقين بالعربية من ترك ويوغوسلاف وباكستانيين وأفغان ، وجدت التأثير النفسى للتلاوة عليهم ، كما أن بعض « الاغريق واليونانيين » يجدون لتلاوة القرآن بل وللأذان بالعربية تأثيرا على مشاعرهم .

وقد أثبتت الأكاديمية الطبية الاسلامية التى أنشأها الدكتور أحمد القاضى فى أمريكا علميا تأثير القرآن على كل من يسمعه ولو كافرا بنسبة ما ، تظهر فى ذبذبات تصدر عن جسد السامع للقرآن تسجلها مراصد علمية مخبرية ،وصدق الله العظيم « **مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم**

تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » (٢) ، **« لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »**(٣) ٠

ومن ثم رأينا بعض المشركين ينسبون القرآن الى الشعر ويعدون الرسول شاعرا ، لقوله تأثير شعر الشعراء الحاد ، فأنزل الله ما ينفى به هذه الدعوى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ٠ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ٠ قل تربصوا فانى معكم من المتربصين** »(٤) ٠

ورأينا من المستشرقين من يستشعرون هذا الشعور الجاهلى ، فترجموا بعض نصوصه شعرا ، ومن ذلك ما نشرته مجلة أدنبره فى عدد يوليو ١٨٦٦ بعنوان : مختارات بالشعر من القرآن لـ « ريتشارد بورتون » ٠ وهذا الاتجاه اتجاه مسموم كذلك ؛ لأنه يعنى أن القرآن لون من الأدب العاطفى المؤثر بخياله ، لا بما فيه من الحقائق ، وذلك يعنى تنحيته عن البحث العلمى الذى يعتمد على صدق الحقائق ، ويدعو الى الارتياب فى قصص القرآن وأخباره وفيما يطرحه على الناس من وعد أو وعيد ، ولا يجعله جديرا بأن يكون دستورا للبشرية ، يضع لها الأصول الثابتة ٠

وقد ذهب الى هذا بعض المستشرقين فعلا ، وتبعهم بعض الكتاب الشيوعيين المنتمين الى الاسلام ٠

وينفى هذه الأوهام عن القرآن أن المتخصصين ـ بل العرب أنفسهم ـ ينفون القول بأن القرآن شعر ، فعندما اجتمعوا بالوليد بن المغيرة للتآمر على الرسول وما يجب أن يذيعوه فى موسم الحج عن الاستماع اليه ، عرضت عدة أفكار للدراسة ، وكان مما اقترح أن يقال عن الرسول انه شاعر ٠ فقال الوليد : والله ما هو بشاعر ، **لقد عرفنا الشعر** : هزجه ومديده وطويله ، وما هذا الذى **سمعناه بشعر** ٠

---

(٢) الزمر : ٢٣ ٠ (٣) الحشر : ٢١ ٠

(٤) الطور : ٢٩ ـ ٣١ ، ونعمة ربك : يعنى القرآن ـ والمنون : يعنى الموت ٠

ثم ان كل ما جاء فى القرآن جاء خاليا من المبالغات التى هى طابع الشعر والنثر الخطابى ، وطابع كتب التاريخ ٠٠ بل ان كل ما فيه تقوم الدلائل على صحته حتى فيما كان غيبا مجهولا عند نزول القرآن ، فعندما نزل خبر عاد وثمود ، ولم يكن عند العرب علم بما روى عنهما ثم انكشف بعد ذلك أن خبرهما موجود فى كتب بطليموس ، فضلا عن أن كتب اليونان والرومان ذكرت أنباءهما ، وذكرت اسم عاد مقرونا باسم « عاد ارم » وصدق الله اذ يقول : « **والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه** » (٥) ٠

وقد ترجم « ويليام ف ٠ دارين » الى الانجليزية سورة الفلق ، وترجم الى الألمانية « المعوذتين » ودرس ما فيهما من « القافية والوزن ، أو السجع والنغم » ، كما ترجم « دانيل ج ٠ رانكن » ترجمة شعرية لسور « الفاتحة واللهب والناس » ، وذلك تحت عنوان : « القافية والوزن والسجع والنغم » ٠

والحق أن الأذن الموسيقية المرهفة تدرك من جمال نظم القرآن ما يجعله فوق كل نظم من القول ، حتى نشأ حول النظم فى القرآن وانسجامه دراسة مطولة فى بلاغة القرآن وأسرار الاعجاز ، وممن اشتهر بذلك « عبد القاهر الجرجانى » فى كتابيه « أسرار البلاغة » و «اعجاز القرآن » ٠

* * *

● الترجمات المقارنة للقرآن بغيره :

والى جانب ما ذكرناه قام بعض المستشرقين بترجمة يقارن بها القرآن الكريم بغيره ، وذلك بجمع نصوص من القرآن وأخرى من غيره مما يطلق عليه الكتب المقدسة ومن ذلك :

ـ المختارات الأدبية المقدسة : وهو كتاب عن اخلاقيات الكتب المقدسة لـ « منكور دانييل كونواى » ظهر فى لندن سنة ١٨٧٤ ، (٨ أجزاء + ٤٨٠ صفحة) والطبعة الخامسة ظهرت سنة ١٨٧٦ ٠

---

(٥) فاطر : ٣١ ٠

ـ التوراة والقرآن : وضعه « جاك جوسييه » فى ١٤٨ صفحة ٠

ـ الكتب المقدسة والمصلحون الدينيون للانسانية:ألفه «لويس لوبلوا»٠

ـ القرآن والتوراة والعبرية : قام بترجمة النصوص « لويس لوبلوا »، وقد ذكر فيه ترجمة السور من ٥٧ الى ٦٥ فقط ٠

ـ القرآن والوحى اليهودى المسيحى : كتبه « دينيز ماسون » ، طبع فى مجلدين بباريس عام ١٩٥٨ ٠

ـ الكتب المقدسة للشعوب : أو « كتب التوراة للأمم » : ألفه«ج٠م٠ هود حسون » ، ويضم مختارات من الكتب المقدسة لدى الصينيين والهنود والفارسيين والبوذيين والقبط والمسلمين ٠ وهو مقتطفات فقط فى ٢٥٢ صفحة ، وقد طبع فى مانشستر سنة ١٨٨٥ ٠

ـ الكتب المقدسة فى الشرق : تأليف : « ب ٠ بوتيه » ٠ طبع فى باريس سنة ١٨٤١ و ١٨٥٢ ٠

ـ دروس فى الأخلاقيات والفلسفة : ألفه « أ ٠ رومان » ـ وهو متنطفات من القرآن والعهد القـديم ، ومن المسـيح عيسى ابن مـريم ، ومن كونفوشيوس ، ومن أشهر الفلاسفة والأدباء القدماء والمعاصرين ، طبع فى تورين سنة ١٨٧٩ ٠

ـ الأدب الدينى لـ « شارل لى دى » : ذكر فيه نصوصا مختارة من القرآن والتوراة وديانات الهند والصين ، وهو تاريخ ونصوص مختـارة ، صدر فى باريس عام ١٩٤٩ ٠٠ وما ترجم من القرآن فى الصفحات من ٤٥٩ الى ٦٠٠ ٠

***

● **علوم القرآن :**

ويعنى بها ما يتصل بتدوين القرآن واعجازه وأسباب نزوله ومحكمه ومتشابهه وقراءاته وأساليبه البلاغية وقصصه ، وما الى ذلك ، مما ألف فيه المسلمون الجيد الممتع ، كالاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وقـد نهض بدراسة لهذه العلوم من المستشرقين الألمان « تيودور نولدكه » سـنة ١٨٦٠ ثم تلميذه « شواللى » سنة ١٩٠٩ ، ثم زاد عليهما « بركشتريسر » و « بريتسل » ، الألمانيان سنة ١٩٣٨ ٠

ثم انشأت جامعة ميونخ معهدا خاصا بعلوم القرآن وبحوثه ضم كثيرا من المخطوطات والمؤلفات المتصلة بالقرآن ، ولكنها قد دمرت بقنابل الحرب العالمية الثانية .

* * *

الترجمة الكاملة لمعانى القرآن

● الترجمات الاسلامية :

نعنى بالترجمة الاسلامية تلك التى قام بها مسلمون ، وكان أول من ترجم معانى القرآن لغير العربية هو سلمان الفارسى ، فقد ترجم فى عهد الرسول ﷺ « فاتحة الكتاب » لمن أسلموا من الفرس القاطنين شرق وجنوب شبه جزيرة العرب ، وكانوا يقرأونها فى صلواتهم الى أن تعلموا العربية(٦) .. ومن هنا استنبط الحنفية جواز قراءة فاتحة الكتاب بغير العربية لمن لا يعرف العربية ، وترجمة الآيات فى الخطبة والمحاضرة ، واستحب أن يذكر بالعربية النص القرآنى مع الترجمة ، لأن الترجمة لا تكون الا للمعانى ، وقد يكون المعنى الذى يذكر عند الترجمة ليس دقيقا أو ليس كاملا .. فقراءة النص العربى جبر لما قد ينقص فى الترجمة .

وكانت أول ترجمة كاملة للقرآن فى عهد « هشام بن عبد الملك ابن مروان » الأموى الى اللغة السريانية ، وقد أهدى نسخة من الترجمة الى « أدور كاريورى » ويرجع تاريخ هذه الترجمة الى حوالى سنة (٦٩٠ م) ، ثم تلتها ترجمات كثيرة بكل اللغات قام بها المسلمون ، واصطبغت بثقافات المترجمين وعصورهم ، كما اصطبغت بمذاهبهم سنة أو شيعة ، بل ان للمنحرفين عن الاسلام ترجمات للقرآن تشرح وجهات نظرهم كالقاديانية .
ولما لم يكن هذا حصرا للترجمات ولا المقصود ما ترجمه مسلمون فاننا نتركه لمن يريد التعرف عليها الى كتاب « القرآن فى جميع اللغات » .

* * *

● المترجم من غير المسلمين :

لقد تناول غير المسلمين من المستشرقين والمبشرين القرآن الى عدة لغات مختلفة تجاوزت المائة ، وكان لها أثرها فى شعر « جوته » شاعر

---

(٦) المبسوط للسرخس : جـ ١ ص ٣٧ .

ألمانيا العظيم ، يظهر هذا فى ديوانه المسمى « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » وفيما يلى أشهر ما بلغنى من ترجمات :

● **الترجمة باللاتينية :**

ان أقدم ترجمة باللاتينية هى التى قام بها « روبرتوس كيتيترى » ، ويرجع تاريخها الى عام ١١٤٣ م ، وأحسن ترجمة بها هى ترجمة المستشرق « ماراكس » المطبوعة سنة ١٦٩٨ لا بالنسبة للصواب ، ولكن باعتبارها لم تفحش فى تحريف المراد بالنص القرآنى ، وقد اعتمد عليها كثيرون من بعده ، ومن بين هؤلاء الذين اعتمدوا على ترجمته المسيو « سافارى » مؤلف كتاب « سياحة فى مصر » ، وقد كانت ترجمة « كيتيترى » للقرآن بناء على مشورة « بطرس فندابل » رئيس كنيسة « كلنيه » . ولكن ترجمته طبعت لأول مرة فى بازل عام ١٥٤٣ - ثم نقلت الى اللغة الايطالية والهولندية ، كما أعيد طبعها فى زيورخ سنة ١٥٥٠ و سنة ١٥٥٦ لدحض عقائد الاسلام .

وقد سادت فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى - فى أوروبا - ترجمة « بيلياندر » وهى ترجمة بعيدة كل البعد عن الأصل العربى . وقد ترجمه بحروف لاتينية الى الألبانية « ايلوميتكو كفريزى » عن ترجمة « سيل » الانجليزية .. ولا شك أن الترجمة لا تكون دقيقة عندما تنقل من لغة أخرى غير الأصلية .

وممن ترجموا القرآن الى اللاتينية « جوهن جوتنر ليكماشر » بعنوان « القرآن » وترجمه دومينيك جيرمانوس دى سيليزى تحت عنوان « تفسير القرآن » وطبع عام ١٦٥٠ و ١٦٦٥ . وترجمه أوجست بفيفر باسم « انتصار القرآن » ، وترجمه جان دى سيموفى - فى القرن الخامس عشر - الى اللاتينية والاسبانية مع طبع النص العربى ، كما ترجم مختارات منه باللاتينية أندريا أكولوتوس . وترجمه صموئيل جوتوالد ، وطبعه مع النص العربى .

ومن المخطوطات باللاتينية ترجمة مارك دى توليد - فى ميلانو ،

ترجم سنة ١٢١٠ م ، وترجمة بارو ، وهو مخطوط في مدينة أوترخت ، في ٣٣٩ صفحة ، ومخطوط في أوترخت للمستشرق « شرودر » .

● **باللغة الايطالية ـ وقد ترجمه كثيرون أبرزهم :**

« اليساندرو بوزانى » ـ له «القرآن» صدر فى فلورنسا عام ١٩٥٥ .

« أكيليو فراكاس » ـ صدر فى ميلانو مع النص العربى سنة ١٩١٤ .

« لويجى بونيللى » ـ صدر فى ميلانو مع النص العربى سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٧ و ١٩٤٠ .

« فروجور » ـ صدر فى بارى سنة ١٩٢٨ .

« اندريا أرويغابينى » : وهو اسم تنكرى ، والاسم الحقيقى « موسينيجو » ، واسم كتابه « قرآن محمد » صدر فى بازل سنة ١٥٤٣ ، ثم فى فينيسيا سنة ١٥٤٧ .

« الفارس فينشترى كالزا » : له « القرآن » مع تفسير ومذكرة عن السيرة النبوية ، صدر فى باستيا عام ١٨٤٧ .

« جيوفانى بانزيرى » : له « القرآن » صدر فى عام ١٨٨٢ ثم ١٩١٢ و ١٩١٣ .

« فيولاننى » : صدرت ترجمته فى روما عام ١٩١٢ .

« ا . برانكى » : له « القرآن » صدر فى روما عام ١٩١٣ .

● **باللغة الفرنسية :**

يوجد الآن نحو أربعين ترجمه للقرآن باللغة الفرنسيه ، ومن بينها ترجمة مزورة تشوه القرآن باسم « فاطمة زائدة » ، نشرت فى لشبونة عام ١٨٦١ ، وأول ترجمة للقرآن الى الفرنسية كانت للدكتور « دى بير » سنة ١٦٤٧ . وقد طبعت فى أمستردام سنة ١٧٧٠ فى مجلدين ، ثم أعقبه « كزيميرسكى » (١٧٨٠ ـ ١٨٦٥) وهو بولندى الأصل وقد تعلم بفرنسا ، وأول طبعات « كزيميرسكى » سنة ١٨٤٠ وآخرها سنة ١٩٧٠ ، وقد وضع « بوسكيه » مقدمة للترجمة طبعة ١٩٤٩ .

كما ترجمه « مكسيم سافارى » وجعل لتفسيره مقدمة طويلة اسماهــا « مختصر حياة محمد » افردناها بالرد على ما فيها من اخطاء ، وقد طبعت اثنتى عشرة مرة أخرى سنة ١٩٧٠ وأولها سنة ١٧٨٣ ـ وهنالك ترجمة اخرى باسم «كلود سفارى» ، واخرى للمسيو «موتون» ، وترجم «هودا» الست والأربعين سورة الأخيرة من القرآن سنة ١٨٦٤ ، كما ترجمه « لويس بلاشير » عام ١٩٠٠ .

● **باللغة الألمانية :**

واشهر من ترجمه الى الألمانية « جانتار واهل » ، ونشرت ترجمتــه سنة ١٨٢٠ ، كما ترجمه « مرجولين » وترجمه « أهلمان » معلقا على ترجمته ببعض الحواشى ـ وظهرت أول ترجمة ألمــانية عام ١٦١٦(٧) ويوجد الآن ٤٦ كتابا بالألمانية تناولت ترجمة لنص القرآن أو لحيـــاة محمد صلى الله عليه وسلم .

● **باللغة الروسـية :**

اذا ادركنا ان للاسلام والمسلمين قبل الثورة الشيوعية وزنا كبيرا ، وأنهم كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة من حيث العدد ، وينتجون من القمح والحبوب والمحصولات الغذائية ما يغطى حاجة روسيا ونصف القــارة الأوروبية تقريبا ، بالرغم من وضع السلطة السياسية فى ولاية موسـكو لأسباب دولية تنبع من التعصب الذى يطيح بالخلق الديمقراطى ـ فاننا حـين ندرك ذلك ـ لا نجد غرابة فى أن ترجمة القرآن الى اللغة الروسية وجدت طريقها المبكر أيضا ، فظهرت ترجمة للقرآن بالروسـية عـام ١٧٧٦ فى بطرسبرج ، وهى ترجمة لفتت الأنظار الى الاستشراق ، بل ان القيصر نفسه أمر « ديمتريوس كانتمير » بترجمة القرآن الى الروسية ، فقـام بترجمته عن الفرنسية ـ ترجمة « دوريير » ـ وقد طبعت هـذه الترجمة فى سان بطرسبرج عام ١٧١٦ ، كما أمر القيصر بطرس الأكبر « بيوتر فاسيليفيتش بوستنكسيوف » بترجمة القرآن(٨) عام ١٧٩٠ ـ ثم ترجمه عن

---

(٧) المستشرقون لنجيب العقيقى ص ٨٧ .

(٨) كان « بوستنكسيوف » من جامعة بادوا ـ وقد سمى ترجمتـــه « قرآن محمد » .

الانجليزية للمستر « سيل » المستشرق الروسى « الكسندر كولماكوف » ، وطبع ما ترجمه سنة ١٧٩٢ وهناك مخطوط لترجمة القرآن لـ « يوجوسلافسكى » أتمه عام ١٨٧١ ثم ترجمه « جوردى سابلوكوف » فى مجلدين بعنوان « القرآن » وطبع فى كازان عام ١٨٧٧ و ١٨٧٩ و ١٨٩٨ وفى عام ١٩٠٧ طبع مرتين ، ثم مع النص العربى عام ١٩٠٨ .

« نيقولاييف » : وكتابه « قرآن محمد » ترجمه من الفرنسية عن « بييرستايين كازيميرسكى » وقد طبع خمس مرات أولاها فى موسكو سنة ١٨٦٤ .

« أجا فنجل ييفيموفيتش كريمسكى » : ترجم السور المكية ، وصدرت له ثلاث طبعات .

« اينياس كراتشكوفسكى » : وقد حرر ترجمته فى عام ١٩٢١ ، وطبع حينئذ ثم أعيد الطبع فى ١٩٢٨ - ثم صدر فى موسكو عام ١٩٦٣ ، وهناك عديد من الترجمات الروسية لأجزاء أو سور من القرآن ، ونحو احد عشر ترجمة كاملة بالروسية .

● **اللغة السويدية :**

من هذه الترجمات ترجمة الآتى أسماؤهم :

« فريدريك كروسنستوليه » : وعنون لترجمته « القرآن » وطبع فى استكهولم سنة ١٨٤٣ .

« س . ج . تورنبرج » : له « القرآن العربى » ، وطبع فى لوند عام ١٨٧٢ ثم عام ١٨٧٤ .

« ك . ت . زيترسنين » : وعنوان ترجمته « القرآن » طبع فى استكهولم عام ١٩١٧ .

● **اللغة الانجليزية :**

يوجد الآن نحو ٥٧ ترجمة للقرآن بالانجليزية .

لقد ترجم القرآن الى الانجليزية « جورج سيل » (١٦٩٧ - ١٧٣٧)

ـ وكانت نشرت ترجمته هذه عام ١٧٣٤ ، ثم أعيد طبع هذه الترجمة في مجلدين ، مع بيان أرقام الآيات ، ونشرت في لندن عام ١٨٣٥ ـ وتعد من أفضل التراجم بفضل ما علق عليها من مذكرات مقتبسة من كتب التفسير العربية والصوفية ، ولهذه الترجمة مقدمة مسهبة عن الدين الاسلامي ، ويصفه الأوروبيون بأنه نصف مسلم ، وقد أعانه على ذلك ما لديه من مخطوطات اسلامية كثيرة ونادرة ، واعتمد فى ترجمته عى نسخة لاتينية أصدرها « ماراتشى » سنة ١٦٩٨ ٠

كما ترجم القرآن آخرون مثل : « ج ٠ ج ٠ مارسيل » ١٨٥٦ ، ومثل « الكسندر روس » ، و « رولاند تايلور » ، و « تيودور أرنولد » ، و « ر ٠ كارليل » و « ج ٠ م ٠ رودول » سنة ١٨٦١ و « ستانلى لين » و « بول » و « ا ٠ هـ ٠ بالمر » سنة ١٨٨٠ ، و « مدام مارجليوث » ، فقد ترجمت نصف القرآن من أول سورة البقرة ، و « ريتشارد بيل » وقد ترجم القرآن ورتبه حسب ترتيب زمن النزول فى مجلدين ، و « دنكان جريتليز » وسمى ترجمته « كتاب الاسلام المقدس » كما ترجمه « ريتشارد بل مابين » سنة ١٩٣٧ ٠

هذا عدا كثير من الترجمات لمختارات من القرآن ٠ والترجمة الوحيدة التى قام بها مسلم انجليزى أصدرها « مارمادوك بكثول » سنة ١٩٣٠ (٩) ٠

● **اللغة البلغارية :**

وعن ترجمة « سال » الانجلزيه نقلت ترجمة للقرآن باللغة البلغارية ٠

● **فى البرتغال :**

اول ترجمة مطبوعة باللغة البرتغالية هى ترجمة « بوكارا فييجو » عام ١٨٨٢ ٠ ثم مخطوط سنة ١٩٤٦ قام بها « جوزيه بدرو ماشادو » ، ثم ترجمة « بنتو دى كاسترو » : « القرآن » نقله عن ترجمة « بكتال » الانجليزية وطبع سنة ١٩٦٤ فى « لورنزو ماركيز » « موزمبيق » ٠

---

(٩) تاريخ العرب « مطول » لـ «فيليب حتى» ص ١٧٤ ـ ط ثالثة ٠

● القشتالية :

ترجم « أ . هرناند يزكتا » القرآن الى اللهجة القشتالية ، لغة قشتالة الأسبانية ، وذلك نقلا عن الترجمة الفرنسية لـ « كلود سافارى » كما توجد ترجمة أخرى للقشتالية عن ترجمة « كزيميرسكى » .

● اللغـة الرومانية :

قام « سيلفسترو أوكتافيـان ايزوبسكول » بترجمة القرآن عن العربية الى الرومانية وطبع سنة ١٩٥٤ فى بوكافيا .

● يوغوسلافيا :

وللقرآن ترجمة بلغة « البوسنة » أحد أقاليم يوغوسلافيا ، وهو بالعربية ، فقد كانت احدى الولايات الاسلامية التى تتحدث العربية وتكتبها قبل انحسار الاسلام عن أوروبا ، شأنها فى ذلك شأن تركيا ومانيزيا التى ظلت لغتها تكتب بالحروف العربية .. الى أن أريد قطع صلات هذه البلاد بكل ما يمت الى الاسلام بصلة ، وبخاصة الحروف العربية التى ان بقيت ، فان القرآن سيظل يقرأ فى هذه البلاد ـ ولو بدون فهم ـ حتى تتاح فرصة تعلم معانى مفردات ما يقرأون فيزداد الفهم للاسلام من مصدره الأول ، وتتوثق الصلات بين هذه البلاد والبلاد الناطقة بالعربية .

● اللغة الفنلندية :

وقد ترجم القرآن اليها « ز . ا . أمسن بوير » . وطبع كتابه فى « تمبيرى » سنة ١٩٤٢ .

● اللغة الهندية واللغات الأخرى :

جاء فى كتاب عجائب الهند والصين لـ « يازجرين شهيار » أنه رأى ترجمة كاملة لمعانى القرآن باللغة الهندية حوالى سنة ٢٧٠ هـ ، ثم تتابعت الترجمات حتى أصبح هنالك اكثر من مائة ترجمة بالأوردية .

كما ترجم القرآن الى الجاوية سنة ١٩١٣ والى السنغالية سنة ١٩٠٨ والعبرانية والآرامية سنة ١٧٩٠ ، والفارسية سنة ١٩٢١ ـ والى التركية سنة ١٩١٣ وفيما بعد ذلك ـ وفى عهد « كمال أتاتورك » وخلفائه كانت الترجمة للآيات والسور اللازمة للصلاة بالحروف اللاتينية اذ كانت قد صدرت أوامر «أتاتورك» بتحريم الكتابة بالحروف العربية ، ومهما يكن فقد بلغت اللغات التى ترجم اليها القرآن نحو أربعين لغة سنة ١٣٦٦هـ ثم بلغت ٦٧ لغة عام ١٩٦٧ ٠

* * *

● **لماذا أطنبت فى ذكر ترجمات القرآن ؟**

وربَّ سائل يسأل : وما علاقة هذا بالسيرة حتى نفرد لترجمة المستشرقين وغير المسلمين بابا فيه هذه التفصيلات ؟

ويدون اسهاب فانى أردت أن أعطى صورة الاهتمام العالمى بالقرآن ٠ بما قصرت عنه همم كثير من الأمم الاسلامية ٠

ثم لأبين كيف أن هؤلاء الغربيين استطاعوا أن يدركوا أن من صميم التعرف على محمد ﷺ ان يتعرفوا على كتابه الذى يرسم منهجه ومنهج أمته فى الحياة ، فهو عليه الصلاة والسلام كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » ثم لأعلم ابنائنا والمعاصرين ومن بعدهم أن دراسة السيرة لا يجوز علميا أن تنفصل عن القرآن الكريم ، ولا عن السنة المطهرة ، وذلك لأن الرسول « رجل » و « رسالة » ، وتطابق بين حركة الرجل ومسيرته وبين منهج الرسالة وأصلها الكتاب الكريم ٠

ثم لأن هذه الترجمات كانت مصبوغة بطبائع المترجمين وطبيعة الحياة الاجتماعية التى تربوا فيها ٠٠ فهى ترجمات ينبغى التنبيه اليها لتقرأ بحذر ، وهى حين يترجمها هؤلاء لا يترجمونها فى الغالب على أنها كتاب الله الرب الذى لا ينحاز الى مذهب أو طائفة أو جنس ، فهو أعلى وأجل من أن يكون ما يقوله نضح بيئية ، ولا تعبيرا عن مذهب ، وانما يترجمونها على أنها أفكار وأدب وفلسفة وثقافة عبقرية محمد ﷺ، الا النادر منهم ، والنادر لا حكم له ٠٠ أى لا يعول عليه فى الحكم العام ٠

* * *

اشـــهر كتاب السيرة

لم تحظ سيرة عظيم بما حظيت به سيرة النبى محمد ﷺ ، فقد كتب فيها كل الأجناس والطوائف بشتى اللغات . حتى ان اللغة الأوردية التى لم تصبح لغة كتابة ادبية الا منذ قرنين بلغ عدد المؤلفات بها عن النبى أكثر من الف مؤلف . ومن الكتاب فيها : هنادك ، وسيخ ، وبرهموسحاج.

ومنذ نحو قرن (١٣٠٤ هـ) نشرت مجلة المقتبس الدمشقية احصاء لما صنف فى السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوروبية فبلغ نحو (١٣٠٠) كتاب ، اما مادحا ، واما قادحا .. وحسب بعضهم ان يكتب فى سيرة محمد ﷺ لينال شرف الكتابة فيها(١٠) .

ومن اشهر المستشرقين الفرنسيين :

١ ــ « م . وات Wate » : انجليــزى لــه كتاب « محمـــد فى مكة » صدر عام ١٩٥٣ ــ كما له كتاب « الجبر والاختيار فى الاسلام » .

٢ ــ « ويــل Well » (١٨٠٨ ــ ١٨٨٩) : وهــو يهــودى ، وكتابه « النبى محمد فى حياته ودينه » يقع فى ٤٥٠ صفحة ، وقد استعان فى كتابته بـ « سيرة ابن هشام على الحلبى » ، وبـ « السيرة الحلبية »، وقد نشر سنة ١٨٤١ . وفى « السيرة الحلبية » كثير من الروايات الواهية يعتمد عليها المستشرقون بغية التضليل .

٣ ــ « وليم بدويل » « ١٥٦١ ــ ١٦٣٢ » : انجليزى . له كتاب « محمد » أو « مصاحبة روحانية بين الشيخ سنان والعالم أحمد » ، وهو مشحون بمفتريات سخيفة على النبى الكريم (١١) .

٤ ــ « أوريان ريلان » : هولاندى . ويعد أول من أمسك القلم من

---

(١٠) الرسالة المحمدية للسيد « سليمان الندوى » ص : ٦٥ ــ ٦٦ ترجمة « محمد ناظم الندوى » ــ ط . المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ .

(١١) المستشرقون ط ٣ ، ص ٤٦٤ .

العلماء الأحرار للعمل على رد الاعتبار للاسلام وصاحب الرسالة فى كتابه عن الديانة المحمدية .

٥ ـ « سيرنفر » : له « حياة محمد وعمله » وهو مثل « نولدكه » يزعم أن الوحى نوبات هيستيرية ويسميها « شوتلاين » ، وقد رد عليه « دوغويه » قائلا : ان الحافظة فى المصروعين تكون معطلة على حين ان حافظة « محمد » كانت غاية فى الجودة كلما هبط عليه الوحى .

٦ ـ « نيسوفانيز كونتينيواتوتس » (١٨١٧) : ويقال انه أول من ألف فى السيرة كتابا سماه « حياة محمد » . وفى الحق أن « يوحنا الدمشقى » سبقه بالترهات الكثيرة عن رسول الله . وفى كتاب « المستشرقون والاسلام » لـ « زكريا هاشم » عرض لمفترياته ورد عليها(١٢) .

٧ ـ « د . س . مرجوليوث » : انجليزى متعصب ضد الاسلام وكان عضو المجمع المصرى والمجمع العلمى العربى بدمشق له فى السيرة « محمد ومطلع الاسلام » صدر سنة ١٩٠٥ وله « الجامعة الاسلامية » صدر عام ١٩١٢ و « التطورات المبكرة فى الاسلام » صدر عام ١٩٢٣ .

٨ ـ « توماس كارليل » (١٧٦٢ ـ ١٨٠٥) : انجليرى ولد بكارليل وبها سمى ، وله كتاب : « الأبطال وعبادة البطولة » .

وقد عقد فيه فصلا عن النبى ﷺ ، فصوره تصويرا عظيما ، ولكنه عندما تحدث عن شكسبير الشاعر الانجليزى وضعه فى منزلة أعلى من منزلة محمد ﷺ وهو غير « كارليل ماكرتناس » المستشرق الذى توفى بالقرن العشرين . وقد ترجم على أدهم الجزء الخاص بالنبى ﷺ(١٣) .

٩ ـ « ج . بارتيلمى سانت هيلبر » : له « محمد والقرآن » وبه الآيات مجموعة طبقا للموضوعات فهو مقتطفات ـ طبع سنة ١٨٦٥ .

---

(١٢) المستشرقون ط . ثالثة ، ص ٤٨١ . وفيها أن « كارليل » ولد
(١٣) المستشرقون ط : ثالثه ، ص ٤٨١ . وفيها أن « كارليل » ولد
سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٨١ .

١٠ ـ « بودى » : الف « حياة محمد » عام ١٦٧١ ، ونقحها سنة ١٧٣٠ ، ويعد كتابه أول كتاب وقف به الفرنسيون على الاسلام ٠

١١ ـ « هنرى كونت دى بولنفلييه » طبع فى سنة ١٧٣٠ كتابه « تاريخ العرب وحياة محمد » فأظهر الرسول فى صورة نابغة ، وزعم أن رسالته محدودة باطار المجتمع العربى ٠

١٢ ـ « ر ٠ دوزى » : له بحث فى التاريخ الاسلامى ـ طبع : ليدن سنة ١٨٧٩ فى ١٣٢ صفحة ٠

١٣ ـ « دى باستوريت » : كتب فى سنة ١٧٨٨ كتابا للتوفيق بين ديانات الشرق الثلاث : زرادشت ، وكونفيشيوس ، ومحمد ، فأصاب الاسلام حظ موفور ٠

١٤ ـ « ديفرجه » (١٨٠٥ ـ ١٨٦٧) : أخذ العربية عن برسفال ٠ واستخلص سيرة النبى ﷺ من تاريخ « أبى الفداء » كما فعل « سفارى » من قبله بنحو قرن ٠ مع انحراف فى تفسير وقائع السيرة أو تحريفها ٠

١٥ ـ « دى برسفال » (١٧٩٥ ـ ١٨٧١) : ألف كتاب « باكورة تاريخ العرب » فى ثلاثة مجلدات عام ١٨٤٧ ٠ جعل الجزء الثانى لعصر النبى ﷺ ٠ وطبع فى باريس سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٠ ٠

١٦ ـ « هنرى لامانس اليسوعى » (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) : مدير ادارة المبشرين ببيروت ٠ له كتاب «اخلاص محمد فى اعلان دعوته» ، و «الحكام الثلاثة أبو بكر وعمر أبو عبيدة » ٠ و « عمر محمد وفاطمة بنت محمد » نشر سنة ١٩١٢ و « مهد الاسلام » سنة ١٩١٤ ، و « السيرة » سنة ١٩١١ ، وهو بلجيكى المولد فرنسى الجنسية ٠

١٧ ـ « هيلار » (١٨٠٥ ـ ١٨٩٥) : كاتب سياسى مولع بالبحث فى أديان الشرق ، وكتب فيها عدة كتب منها كتاب « محمد والقرآن » ٠

١٨ ـ « البارون دى فو » : له كتاب « صاحب القرآن » سنة ١٨٩٨ ٠

١٩ ـ « م ٠ سفارى » : مؤلف كتاب « مختصر حياة محمد » وهو الكتاب الدى تولينا نقده ٠ وكل هؤلاء فرنسيون عدا « كارليل » ٠

واما الانجليز فمنهم :

٢٠ ـ « وليم موير » (١٨١٩ ـ ١٩٠٥) : الف « حياة النبى » و « التاريخ الاسلامى » و « تاريخ الخلافة » .

٢١ ـ « بريدو Prideaux » (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤) : مؤلف « تاريخ حياة النبى » .

٢٢ ـ « أرنست جانييه Gagnier » : من أساتذة أكسفورد له كتاب « تاريخ محمد » وقد جمعه من كتب المؤرخين المسلمين وعنى فيه بالحياة الخاصة للنبى ﷺ وطبعه فى مجلدين بامستردام عام ١٧٢٢ ، وله أيضا « حياة محمد » مقتبس من أبو الفدا ، ترجمه الى اللاتينية عام ١٧٢٣ ونقد حياة محمد لـ « بولينفليز » .

ومن الهولنديين :

٢٣ ـ « وت P. J. Ueth » (١٨١٤ ـ ١٨٩٩) : له كتاب « محمد والقرآن » ، وهو خمس مقالات نشرت فى مجلة الدليل الهولندية ، و « الفتح الاسلامى والخلافة الاسلامية » ، و « مدارس العرب » و « تاريخ اللغات السامية » رد فيه على « رينان » والأب « لاجاست » كما علق على « تاريخ العرب » فى اسبانيا لـ « دوزى » و « نقل القرآن الى الهندية مع نبذة فى دخول الاسلام الهند والدعوة المحمدية » .

٢٤ ـ « كريستيان سنوك هربرونجه الهولندى » (١٨٥٧ ـ ١٩٣٦) : له رسالة عن الحج الى مكة خرج بها الى الآثار الوثنية فى مراسيم الحج ـ فيما يزعمه .

٢٥ ـ « أ . ج . ونسنك » (١٨٨١ ـ ١٩٣٩) : له « محمد واليهود فى المدينة » طبع فى سنة ١٩٠٦ .

ومن الدانمـارك :

٢٦ ـ « يوهل فرنفز » (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢) : أصدر « حيـاة محمد » سنة ١٩٠٣ . و « تعاليم محمد طبقا للقرآن » سنة ١٩٢٤ ، وله « نهضة الشيعيين فى الدولة الأموية » وكتاب « على مدعيا وخليفة » سنة ١٣٢١ هـ .

٢٧ ـ « أويستريب » (١٨٦٧ ـ ١٩٣٨) : أصدر « موجز تاريخ دين الاسلام » سنة ١٩١٤ .

٢٨ ـ « جودى بيترهمر » (١٨٩٧ ـ ١٩٤٥) : ألف مجموعة من الكتب فى تاريخ الاسلام وكانت درجته العلمية فى اللاهوت سنة ١٩٢٢ .

٢٩ ـ « بدرسن » : ولد سنة ١٨٦٦ ، والتحق بالجامعة لدراسة اللاهوت سنة ١٩٠٢ وله « الاسلام منشؤه ونهضته » سنة ١٩٢١ .

ومن ألمانيا :

٣٠ ـ « فللوزن » (١٨٢٤ ـ ١٩١٨) : له « محمد فى المدينة » وهو مختصر اعتمد فيه على النصف الأول من المغازى للواقدى .

ومن النمسا :

٣١ ـ « سبرنجر » (١٨١٣ ـ ١٨٩٣) : له « سيرة محمد » فى ثلاثة أجزاء أعانه فيها « نولدكه » وله « تعليم محمد » .

ومن السويد :

٣٢ ـ « سترستن » : المولود سنة ١٨٦٦ . له « تاريخ حياة محمد ونسائه ورجال الاسلام بعده حتى سنة ٣٣٠ هـ » ـ وله : «القرآن والانجيل المحمدى » (١٩٠٦ ـ ١٩٠٨) و « معاريج الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية » نشر فى ليبزج سنة ١٨٩٦ .

ومن البرتغال :

٣٣ ـ « بروفيجانيه » له « سيرة الرسول » .

ومن أمريكا :

٣٤ ـ « ايرفنج » : له « سيرة النبى » وقد ختمها بفصل عن قواعد الاسلام ومصادره .

٣٥ ـ « فيليب حتى » : وأصله لبنانى . له « تاريخ العرب » ترجمة الأستاذ « مبروك نافع » وفيه فصول عن السيرة . وله « تاريخ العرب »

ـ مطول ـ الفه بالاشتراك مع « ادوارد جورجى » و « جبرائيل جبور » وقد جعل القسم الثانى من الجزء الأول عن ظهور الاسلام ودولة الخلافة .

ومن ايطاليا :

٣٦ ـ « الأمير ليون كايتانى » (١٨٧٩ ـ ١٩٢٦) : من روما . له « تاريخ الاسلام » فى تسع مجلدات من النبوة الى سنة ٤٠ هـ .

***

● منصفـــون :

ومن المستشرقين كتاب انصفوا الاسلام وان لم يسلموا ، وقد ذكرنا رأينا فى كتاباتهم ، ومن هؤلاء :

ـ « اتيين دينيه » الفرنسى : الف « محمد رسول الله » ودافع فيه عن تعدد الزوجات . وذكر أنه أمر ذائع فى سائر أرجاء العالم . وأنه النظام الأمثل . كما دافع عن الاسلام فى رسالة أخرى سماها « اشعة خاصة بنور الاسلام » وانتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام .

ـ « شتمز دومولان » : صاحب كتاب « الاسلام » ، أنصف الاسلام عامة وقانون تعدد الزوجات خاصة .

ـ « مونتجمرى وات » : عميد الدراسات العربية بجامعة أدنبره ومؤلف « الاسلام والجماعة المتحدة » .

وقد أصدره عام ١٩٦٤ (١٣٨٤ هـ) ، وبين فيه أن الصراع بين حركة تجديد جاهلية تنحدر الى الشهوات وجمع المال ، وبين حركة التجديد الاسلامى هو القائم الآن . وذكر أن الاسلام يدعو الى وحدة البشر على أساس العقيدة لا العنصرية ، والى وحدة الوجهة والمثل الأعلى أو باللغة الانجليزية (Ibed) ولم يعرف العالم قبل الاسلام هذا النوع من وحدة الأمة(١٤) .

ـ « رينولد نيكولسون » : رهو يمجد الرسول ولكنه يفسر علاقة

---

(١٤) المستشرقون والاسلام لـ « زكريا هاشم » ص ٥٣٤ .

الناس بربهم تفسير منحرف الصوفية فيقول : « الحقيقة المحمدية » لا « الصورة المحمدية الجسدية » هى مبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، وهى الواسطة بين الله وعباده والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه ، وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية(١٥) .

وهذه فكرة وثنية فى حقيقتها كاللاغوس ، أو المخلص يسوع ، فقد رفع الله عن عباده الحجب والوسائط .

***

● **مستشرقون أسلموا :**

وغير هؤلاء كثيرون كتبوا عن الاسلام فاستهواهم ، وكانت لديهم الجرأة على التخلص من عقدة الجمود ، فأعلنوا اعتناقهم الاسلام ، ومن هؤلاء ناصر الدين « اتيين دينيه » الفرنسى ، و « بوزورث سمث » و « ج . ولينز » و « انسويروكس » ، و « أرنست بارنت » الألمانى ، و « أرثركين » الأمريكى (على عمر كريم) و « هوجين لويسى بوركهابرت » (١٧٨٤ - ١٨١٧) وهو سويسرى تجنس بالجنسية الانجليزية وتوفى ودفن فى القاهرة . و «اللورد ستانلى أوف الدرلى » - اللورد هدلى - الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو فرنسى كاثوليكى أسلم على المذهب الاسماعيلى ، وتصوف وعاش بالقاهرة حتى توفى بها ، و « جون سنت » الانجليزى (محمد جون) رئيس جمعية المسلمين الانجليز ، والمهندس المعمارى الاسترالى « نورمان » واشتهر باسم « أحمد عبد الله نورمان » . و « علاء الدين شلبى » الألمانى ، والمرحوم الأستاذ «كرستيان شرفيس» أحد تلامذة « أوجست كومت » وأحد الأدباء الفرنسيين المعدودين وفلاسفتها المشهورين . و « هاورث دن » : من أصل ألمانى يعيش فى أمريكا وتسمى باسم « جمال الدين » ومن مؤلفاته « مقدمة لدراسة التربية فى مصر » بالانجليزية .

وقد كتبت احدى المجلات الانجليزية عن سبب ميل الانجليز والأوروبيين

---

(١٥) المرجع السابق ص ٥١٠ .

بعامة الى الاسلام فقالت : « ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة عملية فى جوهرها ، لأننا معاشر الانجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثا بالعمل عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم .. عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط (شلدراك) ، عقيدة لا تقف فى سبيل التفكير »(١٦) . وبالبحث وجدوا فى الاسلام كل ذلك الذى ينشدونه .

* * *

● **طبيعة كتابة المسيحى :**

يقول الأستاذ زكريا هاشم : « جدير بنا ألا نتوقع من المستشرقين ـ وهم على غير ديننا ـ أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الاسلامية ـ مهما كانوا منصفين ـ كما نتحدث نحن المسلمين . بل حسبهم ـ وهذا قصارى جهدهم ـ هذه الخلافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العالم المسيحى ، واظهارهم محمدا للعالم المسيحى مؤمنا صالحا يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهدا أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين » .

وتقول الأستاذة « زاهية مصطفى قدور » فى رسالتها لجائزة الماجستير : « واخالنا نفرط فى حق أنفسنا وتاريخنا أشد تفريط اذا لم نأخذ من المستشرقين زمام البحث فى تاريخنا . اذ انهم ـ رغم الجهود التى بذلوها فى القرن العشرين لكشف نواحى التاريخ الاسلامى ـ ما زالوا بعيدين عن كثير من الحقائق ، وسيبقون كذلك ما داموا يعيشون فى غير محيطنا ، ويتادبون بغير آدابنا ، وينظرون بمنظار قد لا يظهر لهم حقائق هذا التاريخ بحكم نشأتهم وبيئتهم وثقافتهم الأولى ومجتمعهم . ثم انهم وهم يعيشون فى محيط مادى يصعب عليهم فهم الروح التى جاء بها الاسلام ، فتلك لا تأتى بالقراءة والتتبع ، ولكنها تأتى مع ذلك من التقاليد الموروثة والبيئة والشعور بالصلة بيننا وبين بناة هذا التاريخ »(١٧) .

---

(١٦) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(١٧) عائشة أم المؤمنين ص ٤ . نشر لجنة البيان العربى سنة ١٩٤٧ م (١٣٦٦ هـ) .

وانك لتلمس مافى صدورهم على صفحات كتبهم فى التاريخ حين يعرضون للرسول محمد ﷺ بالذات ، مثل ما نجده فى كتاب « مجد الاسلام » لـ « جاستون فييت » يقدم فيه « بانوراما » لتاريخ الاسلام ، وقد تجاوز فيه الحقيقة عندما تناول سيرة الرسول والخلافة الاسلامية ، وقريبا منه « ادوارد فرمان » فى كتابه « تاريخ المسلمين وفتوحاتهم » ، وكذلك « أرنولد توينبى » فيما اتصل بالتاريخ الاسلامى ، وكذلك دوائر المعارف الاسلامية الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية ، وما أشبهها كدائرة معارف الدين والأخلاق ٠ ولا عجب : فكل اناء بما فيه ينضح ٠

ومع أن المستشرقين قد تطورت أفكارهم وأحكامهم ـ عن كتابات ما قبل القرن العشرين ـ التى كانت مليئة بالتحيز والتهجم ، بحكم اختلاف الدين ، أو اختلاف المصلحة أو اختلاف الجنس ، أو بسبب قلة ما لديهم من المصادر وجهلهم باللغة العربية ، وسوء الترجمة القديمة ٠ فقد تطورت فى القرن العشرين الى كتابة فيها كثير من الحقائق ، وكثير من التحليل الدقيق ، ومع هذا فانه لا يزال بعضها لا يخلو من الدس والتشويه حينا عن سوء نية ، وحينا عن سوء فهم للحقائق التاريخية ٠

وقد ذكرنا عوامل وأسباب انحراف المستشرقين فى غير هذا الكتاب ٠ وسنفرد كتابات المعتدلين منهم بالبحث لنرى كيف أن المسيحى مهما لبس مسوح العدالة والانصاف فانه لا ينسى حقيقة من فى داخل هذه المسوح ، وليعرف أبناء ملتنا الحكمة السامية فى اشتراط ائمتنا لقبول الرواية التاريخية صحة الاسناد وعدالة الراوى فضلا عن اسلامه وبلوغه ٠

ان صورة النبى محمد ﷺ لتتغير فى كتابات المستشرقين بتغير جنسية الكاتب ولا تجد للصورة الصحيحة الكاملة مكانا عندهم ٠ وكما قال الأستاذ زكريا هاشم :

« ان المستشرقين يقدمون الينا صورا خيالية ، هى أبعد ما تكون عن الحقيقة ٠ انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها أمثال « ولتر سكوت » و « اسكندر ديماس » ٠ وذلك لأن هؤلاء

يصورون أشخاصا من أبناء قومهم ، فليس عليهم الا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة . أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة ، فصورهم حسب منطقهم الغربى وخيالهم العصرى . وان الدكتور « منوك هيرفيرنجه » ليقول فى نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » : « اننا نرى الأستاذ « جريم » لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها فى عمل لكان أفضل . وان الثمار التى كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهى أجدر ببلوغ الغاية التى توخاها . ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يطرف الناس بنبأ جديد ففشل فى وضع السيرة النبوية التى حاول فيها أن يطبع محمدا بطابع الروح الاشتراكى ، وفى جعل محمد اشتراكيا ، وفى أن تقود الاشتراكية نفسها محمدا الى وضع الدين الذى أتى به . ان الاشتراكية الاسلامية لا الاشتراكية الحديثة كما يتصورها « جريم » ثمرة من ثمار الرسالة الاسلامية ، وليست الرسالة الاسلامية ثمرة الاشتراكية » .

* * *

● المهتمون بالطبقات الكبرى :

وقد اهتم بنشر كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد عدد من المستشرقين كما اهتموا بتحقيقها . ومن هؤلاء :

« شبرنجر Sprenger » : وهو نمساوى المولد كان فى سنة ١٨٥٤ وما بعدها موظفا فى ديوان من دواوين المعارف فى مقاطعة « البنغال » وأمين السر للجمعية الآسيوية فيها ، وقد عنى بكتاب المغازى للواقدى ، وطبع كتاب « الاصابة فى أحوال الصحابة » للحافظ ابن حجر العسقلانى . وقد ادعى أنه أول أوروبى كتب فى سيرة محمد ﷺ معتمدا على المصادر العربية الأولى ، ولم يعتمد فى تأليفه الا عليها ، ومع أنه ـ فى الحقيقة ـ لم يكتب كتابه دفاعا عن صاحب الرسالة ﷺ ـ بل كان متحاملا عليه ومخالفا له ـ الا أنه قال فى مقدمته بالانجليزية على كتاب الاصابة المطبوع فى كلكتا سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٦٤ : « لم نكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ـ كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمة المعاصرة ـ أتت

فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم الخطر ، الذى يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم » .

« ادوارد سخاو » (١٨٤٥ ـ ١٩٣٠) : ألمانى . حقق مع تلامذته مثل « ميرلين » كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد كاتب الواقدى . فأخرجوا أول طبعاته فى أربعة عشر عاما هى ما بين (١٩٠٤ الى ١٩١٨) فى ثمانية أجزاء وقاموا باخراج القسم الأول من الجزء التاسع سنة ١٩٢٠ للفهارس ، ثم صدر القسم الثانى من الفهارس سنة ١٩٢٨ ثم القسم الثالث سنة ١٩٤٠ .

وكان أول نشر للكتاب من « ليدن » وقد تضمن الجزآن الأولان منه « السيرة النبوية » ، ثم ترجم للبدريين فى الجزء الثالث ، ثم ترجم للمهاجرين فى الجزء الرابع وكذا للأنصار ممن لم يشهدوا بدرا ، وفى الخامس ترجم للطبقتين الأولى والثانية من أهل المدينة من التابعين والأولى من المكيين . ولمن نزل الطائف واليمن واليمامة والبحرين من أصحاب رسول الله ﷺ ،وفى الجزء السادس ترجم لمن نزل الكوفة من أصحاب النبى وللطبقة الأولى من تابعيهم ، وفى السابع ترجم لباقى طبقاتهم ثم بدأ تسمية من نزل بالبصرة من الصحابة وطبقات تابعيهم . ثم أفرد الجزء الثامن للنساء من حملة الدعوة فى عهد النبى ﷺ ولمن روين السنة النبوية من بعده .

« فيستنفلد Wiistenfeld » (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩) : وهو ألمانى عاون « سخاو » فى اصدار الآثار البادية للبيرونى . وهو صاحب كتاب « جداول الأنساب » .

« أويجن متفوخ » (١٨٧٦ ـ ١٩٣٢) : تلميذ « ساخاو » . وقد عاونه فى تحقيق الطبقات .

« الفكتور كارل فيلهلم سترستين »(١٨٦٦ ـ ١٩٥٣) : من تلامذة « ساخاو » . وقد حقق الجزءين الخامس والسادس من الطبقات الكبرى ، وأصدر كتابا عن تاريخ سلاطين المماليك فى الفترة ما بين سنة ٦٩٠ هـ ، ٧٤٢ هـ ـ ونشر « شمس العلوم » لـ « نشوان الحميرى » ، وأصدر « دراسات نوبية » سنة ١٩١٩ .

« يوليوس ليبرت » (١٨٦٦ ـ ١٩١١) : قام بتحقيق الجزء الرابع من الطبقات ، واصدر كتاب تاريخ الحكماء لابن القفطى عام ١٩٠٣ معتمدا على الدراسات التمهيدية التى قام بها « أوجست ميللر » .

« فريدريك شفاللى »(١٨) (١٨٦٣ ـ ١٩١٩) : قام بتحقيق الجزء الثانى للطبقات عام ١٩١٢ وهو الخاص بالسيرة ، و « فريدريك » تلميذ « نولدكه » الألمانى ، وقد أصدر لأستاذه جزء من كتاب « تاريخ القرآن » مع التعليق عليه (١٩٠٩ ـ ١٩١٩) .

« يوسف هورفتس » (١٨٧٤ ـ ١٩٣١) : وهو ألمانى الأصل وقد وهب معظم سنى حياته لدراسة فجر الاسلام . ونال الدكتوراه سنة ١٨٩٨ عن « مغازى الواقدى » . كما أصدر من طبقات ابن سعد الجزءين اللذين يتعلقان بغزوات الرسول والبدريين ، وقام بتكليف من « ليون كايتالى » الايطالى (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦) بالبحث عن المخطوطات ذات الفحوى التاريخى بمكتبات القاهرة ومراكش وأسطنبول ، وكان له اهتمام بالهاشميات لـ «الكميت» فحققها.ولا ريب أن اهتمامه بها نابع من اهتمامه بالتاريخ . وقد قام بالتدريس للغة العربية فى الهند بالكلية المحمدية الانجليزية الشرقية من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٤ ، كما عمل قارئا رسميا من قبل الحكومة للمخطوطات الاسلامية بالهند ، وكان فى فرانكفورت (١٩٢٥ ـ ١٩٣٢) من أهم الشخصيات التى تعنى بالدراسات القرآنية، وبخاصة النواحى اللغوية .

وقد سبق أن هذه الطبقات مع كثرة مادتها العلمية ضمت الغث والثمين . وخلطت الحق بالباطل . والصحيح من الروايات بالزائف الذى من أجله كان يتعفف العلماء من القراءة فيها وفى أمثالها من الكتب المليئة بالاسرائيليات كالعرائس . أو بالأحبار الواردة بدون تحقيق كالأغانى .



---

(١٨) فى المستشرقون ـ الطبعة الثالثة : « فريدريخ سواللى » .

الفصل الثالث

الشبهات المشتركة بين المستشرقين

- أصالة القرآن والتشكيك فى قصصه وفى الاسراء وعموم الرسالة ٠
- مطاعن المستشرقين فى اسماعيل وزواجه من جرهم وأنه الذبيح ٠
- أكذوبة المزاج الدموى ـ وانتشار الاسلام بالسيف ٠
- عقيدة القدر والحرب ـ بين جبرية الاسلام وجبرية الفلاسفة ٠
- زواج النبى بخديجة ـ وبعائشة ـ وحديث الافك ٠
- وصف النبى بأنه شاعر أو ناثر مبدع ـ ودعوى تأثير البيئة فى القرآن ٠
- ما سر الصراع بين الاسلام والكفر؟ ـ تصوير النبى بأنه بطل ـ ومصلح ٠
- نقض مطاعن فى القرآن ٠


http://kotob.has.it

شبهات المستشرقين

مع شيء من التجوز نقول « شبهات المستشرقين » والحق أنها فى أغلب الأحيان : مفتريات وتشكيكات يقصدون الى اثارتها قصدا ابتغاء الفتنة ، لا طلبا للمعرفة أو الهدى ٠٠ وهذه المفتريات معظمها قال به أكثر من واحد : « **أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون** »(١) ٠

ومن هذه النقاط المشتركة التى ترددت فى كتبهم ما نورده فيما يلى :

● التشكيك فى أصالة القرآن :

من الشبهات دعوى أن القرآن قد استقى من الكتب المقدسة السابقة ما جاء فيه ، وقد يبالغ بعضهم فيتهم القرآن بأنه ناقل عنها قصصها مشوها ـ وسيأتى ذكره والرد عيه ، عند مناقشة « فرانك فوستر » ٠

● التشكيك فى قصص القرآن :

من حملاتهم التشكيك فى قصص القرآن حتى يتيسر التشكيك فى ثبوت القرآن كله ٠ وتبعهم أحد المعاصرين فقال ان قصص القرآن انما هو للحكمة وليس خبرا عن تاريخ وقع ٠ وفضح الله خبثهم فأثبتت الدراسات العلمية والأثرية أن كل ما فى القرآن حق وتاريخى ٠

ومن هذا القبيل ذهاب « كزيميرسكى » الى التشكك فى حادث قصة الفيل وارسال الله طيرا أبابيل ٠

والرد على هذا واضح ، فان العرب حين نزلت سورة الفيل لم ينكروها رغم موقف التحدى منهم للنبى ﷺ وقرب وقوع الحادث من عصر الرسالة ٠ ولولا يقينهم ومشاهدة بعضهم لها لكذبوا النبى فى خبرها ٠

● انكار ارهاصات النبوة :

هكذا قال « كزيميرسكى »(٢) و«سفارى» ، وقد تناولنا ذلك بالحديث فى نقد « سفارى » ٠

---

(١) الذاريات : ٥٣ ٠

(٢) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٢١ ٠

● شق صدر النبى :

انكره « سفارى » وسنرد عليه ، كما انكره « كزيميرسكى » فى مقدمته لترجمة القرآن عن تاريخ محمد ﷺ ٠

● عموم الرسالة :

ومما يثيرونه دعوى ان محمدا رسول للعرب وحدهم ، هكذا قال « سفارى » و « كزيميرسكى »(٣) وغيرهم ، وقد أفضنا فى بيان عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، عند ردنا على المستشرق « م ٠ سفارى » بما فيه الكفاية ٠

● انكار الاسراء والمعراج :

والتشكيك فى وقوع ذلك نهائيا أو فى وقوعه بالجسم مما اثاره المستشرقون ، وقد رددنا على « كزيميرسكى » و « سفارى » فى هذا فارجع الى ذلك ٠

● اتهام النبى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مؤلف القرآن :

من شبهاتهم انكار نزول القرآن ودعوى أن محمدا ﷺ هو صانعه ومؤلفه ٠

قال بهذا المسيو « جاستون فييت » فى كتابه « مجد الاسلام » من محمد الى « فرانسوا الأول » فى القرن السادس عشر الميلادى وقال : كانت أسرة بنى أمية أرقى من أسرة محمد فى الجاهلية ٠٠ وافترى مفتريات كثيرة ٠ وهو كتاب يقع فى (٢٥٠ صفحة) عرضه وعلق عليه حسين يونس فى مقال ، وقال بهذا « م ٠ سفارى » ، و « فلهاوزن » وآخرون ٠٠ ورددنا هذه الفرية عند مناقشة « سفارى »(٤) ٠ وسيأتى الرد على هذا أيضا فى فصل « دعوى تأثير البيئة فى القرآن » ٠

---

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ ٠

(٤) راجع فى كتابنا عنه الموضوعين : « هل الاسلام من صنع محمد ؟ وهل كان للنبى مطامع ؟ ٠٠ » ٠

دعــوى أن محمدا صانع الاسلام

اعتقد « كزيميرسكى » هذا وبنى عليه أن محمدا هو الذى حــــرم رواج نساء النبى على المسلمين من بعده ٠

ويضطرب قوله فيقول : ان محمدا خالف القرآن فى تزوجه بأكثر من اربعة(٥) فلو أن محمدا هو صانع القرآن لما أوجد فى نصوصه ما يثير عليه شغب خصومه من قراء القرآن ٠

وقد قال « جورج سيل » الذى ترجم القرآن فى أوائل القــرن الثامن عشر الميلادى : ان محمدا مخاتل اخترع الاسلام اختراعا ٠ واتهمه بالوثنية ، وجرى « سفارى » فى التاريخ للنبى على هذا وقد رددنا عليه ٠

أما وثنية محمد التى زعمها « جورج سيل » فهى دعوى يعــرف كذبها الجميع فمن هو الذى هتف بالقرآن « **قل هو الله أحد ٠ الله الصمد ٠ لم يلد ولم يولد ٠ ولم يكن له كفوا أحد** »(٦) ، « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** »(٧) وكما قال صديقى الأستاذ « ثالونى غبريال يسى » : ليس هنالك دين أنقى فى التوحيد من الاسلام ٠

وقد اضطرب « بودلى » مثل اضطراب « سفارى » فى الاعتقاد بأن محمدا ﷺ أخذ دينه من فم « بحيرا » بالرغم من أن مقابلة النبى « لبحيرا » كانت فى العاشرة من عمره ﷺ ، وأنه لم يقابل « بحيرا » الا مرة واحدة ، وقد قال : ان محمدا قابل فى سوق عكاظ (المجمع الأدبى والدينى) كثيرين فتأثر بذلك فكره ، ونضج عقله ، حتى كانت ثمرة هذه المقابلات « دين محمد » ٠

وكأن سوق عكاظ جامعة دراسية فيها المحاضرون المنتدبون من أطراف المعمورة يجلسون الشهور لاعداد جيل ٠٠ وكأن هذه الجامعة ليس لهــا تلميذ الا محمد « منتج الاسلام » ـ كما يزعم « بودلى » ـ وقد وقع كتاب

---

(٥) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٨٤ ، ٨٥ ٠
(٦) سورة الاخلاص ٠ (٧) البينة : ٥

تاريخ الأدب العربى فى أحبولة المستشرقين هذه فجعلوا من عكاظ لا سوقا تجاريا كغيره من الأسواق ، ولكن مدرسة فلسفية وأدبية لم يجد التاريخ بمثلها ـ صهرت الأدب العربى فى بوتقة الجمال والكمال ..

انه سوق كسائر الأسواق أشبه بمولد السيد أحمد البدوى أو « ابراهيم الدسوقى » فى مصر ينعقد أياما ، ثم ينفض فيه المرتزقة من بيع السلع والمرتزقة من الفكر بالشعر (المواويل) أو بالحيل البهلوانية والشعوذة .. أو بالدين كأدعياء التصوف ، وكل هؤلاء لا يمكن ومهما تفرغ المرء للتتلمذ عليهم فهم أعجز من أن يصنعوا مفهوما للحياة الأولى والآخرة ، وعالم الغيب والشهادة ، كالمفهوم الذى يعبر عنه بدين الاسلام ، وأن يورثوا أحدا ذلك المفهوم .

والحق أن « بودلى » فى تخيله أن رسول الله ﷺ أخذ من فم « بحيرا » لم يقصد نفى رسالته ، اذ أنه أثبتها قائلا فى مقام آخر : ان بساطة النبى فى طعامه ولباسه ـ وفى يده أن تساق له الدنيا جميعا ـ لو أراد ـ دليل على أنه رسول الله .

***

● **مسيحى ينقض قول « فييت » ، و « جورج سيل » :**

وقد أصدر بشرى زخارى ميخائيل كتابه « محمد رسول الله .. هكذا بشرت الأناجيل » وعقد فيه فصلا لاثبات أن القرآن كلام الله (٨) واستدل بالأدلة الآتية على هذا :

١ ـ القرآن يتضمن ما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من قبل .

وهذا التشابه الذى ذكره زخارى فى الاستدلال على صدق دعوى النبى الرسالة هو الذى استدل به النجاشى حين قرأ جعفر بن أبى طالب القرآن عليه فقال : « والله ان هذا الذى تقرؤه والذى انزل على عيسى ابن مريم ليخرجان من مشكاة واحدة » ، والاستدلال بالتشابه فى الملامح الرئيسية

---

(٨) محمد رسول الله ص ١٤ نشرته دار « عالم الكتب » .

برهان علمى يتبع فى علمى الأنساب (العيافة) والأجناس · وقد أفاض الكاتب فى استقراء المبادىء التى جاء بها القرآن ·

٢ ـ لو كان القرآن من عند محمد لما رفع قدر المسيح أو موسى الى منزلة عالية · بل لكان أقل ما يجب هــو الصمت عن معجــزات موسى وعيسى وغيرها كى لا يضع فى يد الخصم سلاحا ماضيا · كما هو فى شــأن المسيح ·

٣ ـ لو كان محمد هو صاحب هذا القرآن ، ونسب هذا النظــام العظيم الى الله · أو الى أية جهة أخرى لكان ظالما لنفسه أشد الظلم اذ بخسها حقها ، وحرمها هذا المجد الذى يؤهلها له هذا الكتاب العظيم الذى يتحدى الانس والجن واعجزهم أن يأتوا بمثله · ولكان من حق من يصدر عنه هذا الكتاب المعجز القاهر أن يكون فوق العالمين · مستندا الى ذاته لا الى قوة الهية تسنده · ولذا كان القرآن الهى المصدر ·

وأما النبوة فقد استدل عليها بالآتى فى فصل عقده لهذا :

١ ـ بساطته وزهده كما قال « بودلى » ·

٢ ـ لو كان محمد يبغى بدعوته تمجيد نفسه أو خاصة قومه لما جعل لأهل الكتاب فى كتابه كرامة ومنزلة ·

٣ ـ ولما قاوم المشركين منذ أول لحظة · بل استدرجهم ولم يفاجئهم بعيب آلهتهم ·

٤ ـ ولو انه كذلك يبغى مجده الشخصى لكان لهذه الفتوح عائد مالى تضمه له خزينة · ولكنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى شعير اشتراه لطعام أهله ، أيحسب فى المخادعين والكذابين والمضللين ·· من يرد كل هذه الدنيا التى وضعت بين يديه ؟ !!

٥ ـ بشارات الأناجيل بمحمد · وقد ذكرها وفند الشروح الخاطئــة لها ، مثال ذلك ما جــاء فى سفر التثنيــة (١٨ : ١٧ ـ ٢٠) وقــد عقــد لها فصلا خاصا يمكن الرجوع اليه ·

٦ – ويمكن أن نضيف الى هذا أن ما نطق به النبى من حديثه يختلف فى بيانه عن أسلوب القرآن المعجز . وهذا الاختلاف الكبير بين الأسلوبين دليل على أن القرآن وحى نزل على النبى ﷺ وليس من ابداعه وانشائه، وهو دليل نبوته ، اذ الأسلوب من سمات الشخصية ، وقد رأينا القـرآن يختلف عن أسلوب النبى ﷺ .

* * *

مطاعن المستشرقين فى اسماعيل عليه السلام

ان تجريح اسماعيل أو انكار علاقته بالعرب ، أو انكار علاقة النبى محمد ﷺ به وهو ابن ابراهيم الخليل الذى تعتز به العرب : أمور اهتـم بها المستشرقون ، لأن القرآن والسنة أثبتا علاقة اسماعيل بابراهيم وبالكعبة وبمحمد ﷺ وبالعرب ، فهدم هذا أو التشكيك فيه هـدم للقرآن ولرسالة النبى الذى جاء به ، أو تشكيك فيهما .

وقد ردد هاشم العربى فى تذييله هذه المفتريات ، وأجاب عنها الشيخ محمد حلاوة المرصفى فقـال : « ثم طعن فى أخبار اسـماعيل كلهـا : (١) من سكناه مكة ، (٢) ومن مصاهرته لجرهم ، (٣) ومن كون اسماعيل هو الذبيح » .

● سكنى مكة :

وقد استدل فى انكاره سكنى مكة بثلاثة مواضع من التوراة .

أولها : مصرح بأن سكنى اسماعيل كانت بـ « فاران » ، وهى برية بين بلاد مصر وديار « ثمود » .

وثانيهما : مصرح بأنه سكن أمام اخوته بالشام بأرض كنعان .

وثالثهما : مصرح بأنه لما مات أبوه دفنه بقرية « المكفيلة » بأرض كنعان ، وبين هذه القرية وبين مكة مسافة لا يقطعها الراكب المجد فى أقل من عشرة أيام .

فلو كان اسماعيل فى مكة عندما أتاه نعى أبيه لما استطاع أن يدفن أباه الا بعد عشرة أيام .

الجـــواب :

ان هذا الاختلاف فى النسخة الواحدة من التوراة فى الواقعة الواحدة يرفع الثقة بها . ويمنع الاستدلال بنصوصها . فالدعوى باقية بحالها .

وأما نحن فلنا دلائل صحيحة وشواهد كذلك . منها :

(ا) قول « جرجيس صال » فى الفصل الأول من كتابه : ان العرب سموا عربا لسكناهم العربة ، وهى أرض تهامة ، والمراد بها مكة ، لأن لسان العرب فسرها بذلك ، وقد استشهد بقول بعض الشعراء العرب يمدح مكة والنبى ﷺ :

وعربة أرض لا يحل حرامهـــــا من الناس الا اللوذعى الحـلاحل

يريد بالعربة مكة ، وباللوذعى الحلاحل النبى ﷺ ، لأنها حلت لـه لا لغيره يوم فتح مكة ساعة من نهار .

وقد قام الدليل ـ يعنى التواتر على الأقل ـ على أن العرب أولاد اسماعيل ، فبالضرورة يكون المسكن واحدا ، والموطن واحدا . وفى التوراة نصوص كثيرة على نسبة العرب لاسماعيل(٩) .

(ب) وقال « جرجيس » أيضا : ان التسمية بمكة لا تجهلها العرب ، وظنى أنه مأخوذ من اسم واحد من أولاد اسماعيل .

(ج) وفى التوراة : الباب السادس والثلاثين من سفر الاستثناء ما نصه « جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبـل فاران » . وتوضيح هذا أن مجىء الرب من سيناء كناية عن اعطائه التوراة لموسى ، واشراقه من ساعير كناية عن اعطائه الانجيل لـ « عيسى » . واستعلائه من « فاران » كناية عن انزاله القرآن على سيدنا محمد عليهم

---

(٩) انظر رسالة اسماعيل فى التعقيب على « م . سفارى » فى كتابه « مختصر حياة محمد » وسفر أشعيا : الباب ٤٢ والاستثناء : الباب ٣٦ .

الصلاة والسلام ، لأن « فاران » جبل من جبال مكة ، فهى المرادة بقـول التوراة « سكن اسماعيل فى برية فاران » لأن استعلان الله بالقرآن لم يكن الا بمكة وما جاورها ٠

(د) وقال « جرجيس » أيضا : ليس لذرية اسماعيل وجه فى دعواهم أنهم عرب خلص ، لأن جدهم اسماعيل كان عبرانيا مولدا ، وانما صاهـر جرهما ، اذ تزوج بابنة مضاض ، أحد ملوكهم ، فاختلطت ذريته بهم ، وصار ما معهم أمة واحدة ٠ ومن المعلوم أن جرهما كانت فى مكة فهـذا دليل سكناه مكة ومصاهرته جرهم ٠

وأما الأدلة على سكنى اسماعيل بمكة من القرآن والسنة النبوية عندنا نحن المسلمين فمعلومة فلا نطيل بذكرها ٠

* * *

● **التشكيك فى زواج اسماعيل من جرهم :**

استدل الطاعن فى دعوى زواج اسماعيل من جرهم بدلائل ٠

الدليل الأول : أن جرهما كانوا أهل عمل وثـروة وأنفـة ، وكان اسماعيل فقيرا لا يملك الا سبعة أعنز ، وكان عبدا هجينا لكونه ابن هاجر التى هى أمة « سارة » وعادة العرب ـ وبخاصة الجرهميين ـ أن يأنفوا من زواج العبد بالحرة ٠

بطلان الدليل : هذا الدليل باطل من وجهين :

أولهما : أن اسماعيل حر تابع لأبيه الحر ابراهيم ، ولأمه الحـرة هاجر طبقا لنصوص التوراة التى تقضى بأن تصير الأمة المستولدة حـرة بمجرد ولادتها من سيدها ، فضلا عن أن هاجر تنتمى فى نسبها الـى الملوك ٠٠ شاء الله أن تقع أسيرة ٠ فهى ليست من سلالات الرقيق ٠

وثانيهما : أن جرهما لما أرادت السكنى بجوار « هاجر » من أجل ماء زمزم ورأوا عدم رغبتها قالوا لها : أنسكن بجوارك ، ولابنك الحق ـ متى كبر ـ فى ابقائنا واجلائنا ، وله الشطر من أموالنا ؟ فقالت هاجر :

نعم ان وفيتم . فلما ترعرع الغلام ووجدوه أفصحهم لسانا ، وأكمنهم عقلا ، قاسموه أموالهم ، وفاء بالشرط ، فصار أكثرهم مالا كما روى ذلك الكامل وغيره .

فكيف يأنفون من مصاهرة من لو شاء أبقاهم أو أجلاهم ، وهم محتاجون اليه أشد الحاجة ؟ !

الدليل الثانى : قال بعض المؤرخين : ان جد هذه الزوجة الجرهمية اسمه عبد المسيح ، مع أن اسماعيل قبل المسيح بألفى سنة ، فاما أن الزوجية مكذوبة ، واما أن يكون اسماعيل المتقدم على الميلاد بألفى سنة قد تزوج بامرأة لم تكن ولدت ولا ولد جدها الا بعد المسيح . وهذا ما لا يقول به الا مخبول .

والجواب : ان ما كتبه مؤرخ ليس حتما ان يكون صحيحا .

ولو سلمنا بصحة ما قيل من أن جد زوجة اسماعيل كان اسمه عبد المسيح فانه لا يدل على أن المراد بالمسيح هو عيسى ابن مريم ، وذلك لأن المسيح فى الأصل اللغوى معناه المبارك أو الممسوح بالزيت الذى بارك الله فيه ، وهو وصف يصح أن يتصف به كل نبى تمسح بهذا الزيت ، بل ويتصف به غير الأنبياء أيضا وان لم يكونوا مباركين ، فقد كان طالوت ملك بنى اسرائيل يدعى مسيحا ، مع أنه ـ على زعم النصارى ـ صار فى آخر ملكه مفسدا شريرا بسبب غيرته من داوود عليه السلام عند قتله « جالوت » الفلسطينى واصراره العداوة له ، ثم غلب هذا الوصف على المسيح عيسى صلوات الله عليه ، ولذلك لا يذكر لفظ المسيح فى القرآن الا مقرونا به ما يعينه من ذكر الاسم أو النسبة للأم : « المسيح عيسى ابن مريم » .

فاذا قلنا بصحة التاريخ ، فالمراد بالمسيح ـ الذى هو من جدود زوجة اسماعيل ـ مسيح آخر نسب ذلك الجد اليه ، على حد قولهم « عبد مناف » و « عبد الكعبة » .

الدليل الثالث : وهو قوله تعالى : « **لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك** »(١٠) .

---

(١٠) القصص : ٤٦ .

ووجه الاستدلال بالآية : أن اسماعيل لو كان صهرا للعرب لكان نذيرا لهـا ٠ مع أن الآية نافية وجود نذير قبل محمد ﷺ ٠

والجـواب :

(ا) ان هذا الاستدلال أيضا باطل ٠ لأن المراد بالقوم فى الآيـة قريش خاصة ٠

(ب) أو العرب الذين بعث فيهم النبـى ومن يـأتى من دريتهم أو يعاصرهم أو يأتى من ذرية معاصريهم ، وبعبارة أخرى المراد بالقـوم هم من كانوا موضوع النذارة والحديث ، وهو المعهود من الخطـاب والحديث ٠٠

وهذا لا ينافى أن اسماعيل أرسل الى غير قريش وهم جرهم ٠ أو أرسل الى العرب الذين كانوا قبل مبعث محمد ﷺ ٠ فالمخالطون للرسول ثابت يقينا أنهم لم يأتهم غير محمد ﷺ فى زمانه ٠ فالمراد بقوله « **من قبلك** » قبل اعلان رسالتك ، وليس المراد قبل عصرك على التأويل الثانى ٠

الدليل الرابع : قال الطاعن : ان نسبة العرب الى اسـماعيل غـير صحيحة ، وانما أنبأتهم بها اليهود ــ تحببا اليهم واستجلابا لنصرتهم ، وقد كانت اليهود تقول لهم : نحن وأنتم من ذرية ابراهيم ، وما زالت تكرر لهم الأكاذيب ، وكانت العرب أجهل من أن يردوا الأكاذيب ٠

والجواب : ان من علم حالة العرب وشهامتها ومعرفتها لخفيـات الأمور لم يجوز عليهم الجهل بالنسب حتى يتعرفوه من اليهود ٠ وكيف وهم أعلم الناس بالأنساب فقد كانوا يتكاثرون ويتفاخرون بها فى أشـعارهم ، واذا كانوا يعرفون أنساب خيولهم وابلهم ونسبة سيوفهم ورماحهم الى صناعها ٠٠ افلا يعرفون أنسابهم ، وقد روى ان حسان بن ثابت شاعـر النبى ﷺ استأذن النبى فى أن يهجو قريشا ٠ فقال له عليه الصلاة والسلام: وكيف ونسبى فيهم ؟ فقال حسان : لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم » وقـد كان العرب يعرفون الأنساب ويحرصون عليها كسبا لقلوب من تربطهم به

مصاهرة أو قربى وان بعدت ، ولأن نسب الفرد الى القبيلة كاثبات الجنسية فى العصر الحديث ، فلا بد لهذا من حفظ النسب ليعرف من فى أهل القبيلة تعداده ومن ليس فيهم . حتى تكون غاراتهم طبقا لمعرفة تعدادهم . وان لم يكن للتعداد احصاء مكتوب . ولأن معرفة الأنساب ضرورة عند المصاهرة وخطبة أى فتاة طبقا لقانون الكفاءة الزوجية عند النكاح .

ولو قرأ هذا الطاعن كتاب « قطف الزهور » تأليف «يوحنا أنكريوس» لنظر من فضل العرب ما يردع عن مثل هذه الخرافات ، ولو اطلع على كتاب « سل » الانجليزى الذى ألفه فى الاسلام لرجع طرفه خاسئا وهو حسير . حيث قال عند الكلام عن الحنفاء ـ أى العرب الذين آمنوا بالآخرة فى زمن الجاهلية ما ترجمته : « ان اليهود لم تخالط العرب بمكة ، ولكنهم لما هاجروا الى المدينة خالطوهم » .

وكان المسلمون يقولون لهم : ان أبانا وأباكم ابراهيم ، ونحن على دينه فكونوا معنا اخوة فى الدين كما نحن اخوة فى النسب ، ويتلون عليهم قوله تعالى : « **ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه** »(١١) .

وبهذا يبطل قول صاحب التذييل : ان العرب لما رأوا تعظيم اليهود والنصارى لابراهيم عليه السلام ، واستوى عند هؤلاء العرب الانتساب له ولغيره ـ اختاروه للانتساب اليه حيث كان معظما عند هاتين الطائفتين .

ويبطل قوله ايضا : ان اليهود فى أيام الأسر المصرى والبابلى تلقنوا من المصريين والكلدانيين ببابل تلك الخرافات ، فلما خلصوا وأقاموا بجزيرة العرب لقنوهم ذلك(١٢) .

* * *

● الذبيح اسماعيل ، لا اسحاق :

أما كون اسماعيل هو الذبيح ، وليس اسحاق كما يدعى خصوم الاسلام فواضح ، وقد تصدى لهذه الفرية قديما العلامة ابن القيم فى

---

(١١) البقرة : ١٣٠ .
(١٢) ثبات الايمان ص ٣٥ ـ ٤٩ .

مقدمات زاد الميعاد كما تعرض لها فى المتأخرين المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ، وخلاصة ما قاله : ان التوراة عند ما ذكرت الذبيح لم تنص على كونه اسحاق ، وانما ذكر لفظ اسحاق عند ذكر الذبيح حشرا ٠ والدليل على ذلك الحشر :

١ ـ أن الذبيح وصف فى التوراة بأنه ابن ابراهيم الوحيد ٠ (الاصحاح : ٢٢ من سفر التكوين) ٠

ونحن اذا رجعنا الى اسحاق لم نجده وحيدا لابراهيم فى يوم من الأيام،لأن اسحاق ولد وكان عمر اسماعيل نحو أربعة عشر سنة كما هو صريح التوراة ، وبقى اسماعيل حيا الى أن مات ابراهيم وحضر اسماعيل وفاته ودفنه ٠

٢ ـ ان ذبح اسحاق يناقض الوعد الذى وعد به ابراهيم ، وهو أن يكون لاسحاق نسل ٠

٣ ـ ثم ان مسألة الذبح وقعت بمكة ، واسماعيل هو الذى كان بها كما فى الاصحاح ٢١ من سفر التكوين(١٣) ٠

٤ ـ توارث العرب الفخر بـ « منى » من عهد ابراهيم عليه السلام ، لذا صار هذا من شعائر الحج ، ولو كان الأمر بالذبح لاسحاق لكان النحر بالشام ، ولكانت القرابين هناك ٠

٥ ـ ان أمر ابراهيم بذبح ولده اسحاق تدعو اليه الخلة التى لا يناسبها حب الولد ، وقد جرت العادة بأن الحب يكون لأول الأولاد أشد ، والأول هو اسماعيل ، فالامتحان به ٠

٦ ـ ان اسحاق هو ابن السيدة ـ أعنى « سارة » ـ واسماعيل هو ابن الجارية « هاجر » ٠ وقد أراد الله الرحمة لسارة اطفاء لنار غيرتها ٠ فأمر بابعاد « هاجر » وولدها ، والأمر بذبح اسحاق ينافى تلك الرحمة ٠

---

(١٣) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٠١ ـ ١٠٣ ط ٠ دار الثقافة ببيروت ٠

٧ ـ ان التبشير باسحاق نبيا كان مكافأة مع فداء الذبيح ، وجزاءا لنجاح ابراهيم فى امتحان الله له :

« وفديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه فى الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزى المحسنين • انه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين »(١٤) •

فالوجود التاريخى لاسحاق بعد قصة الذبح ، فلزم ان يكون الذبيح هو اسماعيل وليس اسحاق •

وفى القرآن ايضا قال الله عن سارة : **« فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب »(١٥) •**

ووجه الدلالة : ان الله بشر « سارة » باسحاق وبأنه يعيش حتى يولد له يعقوب فلا يصح الأمر بذبح اسحاق ، والا ما أتت البشارة بيعقوب(١٦) •

***

مهاجمة القرآن فيما اورده عن تاريخ ابراهيم واسماعيل

١ ـ قال بعض المستشرقين ـ كما فى دائرة المعارف الاسلامية ـ : القرآن يناقض التوراة فى اسم والد ابراهيم الخليل مما يدل على افتراء محمد على الله للقرآن • وزعم « مراتشى Prodrani Maracci » (١٧) أن آزر تحريف لكلمة (Agae) التى وردت فى تاريخ الكنيسة ليوزبيوس ، ولم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه تلك الفقرة التى ورد فيها هذا الاسم ـ وهو قول بعيد الاحتمال ـ على القائلين بنقض التوراة لما فى القرآن •

والجواب : ان هذا لم يقله اليهود أنفسهم مع شدة تربصهم وكيدهم للاسلام فى عهد النبى ، فكلمة « آزر » التى فى القرآن كانت تطلق بدلا

(١٤) الصافات : ١٠٧ ـ ١١٢ (١٥) هود : ٧١
(١٦) ثبات الايمان ص ٣٩ ، ٤٠ •
(١٧) مراتشى : قسيس ايطالى عاش فى القرن السابع عشر ، ولم يسمح له بنشر ترجمة للقرآن الا بعد الحاق معارضات للقرآن بها .

من كلمة « تارخ » · اما لأنها لقب ، واما لأنها صفة غلبت على والد ابراهيم · ولا غضاضة فى قول بعض العلمــاء : ان القرآن عبر بكلمــة « لأبيه آزر » جريا على عادة العرب من اطلاق لفظ « أب » على العم · فلا خلاف اذن · والصواب أن « آزر » هو الاسم الصحيح لأبى ابراهيم ، وأن التوراة هى المخطئة والمحرفة ، بل انها لتحرف اسم ابراهيم فتجعله ابرام ثم بعد أن بلغ ٩٩ عاما سمته ابراهيم(١٨) ·

٢ ـ **وقالوا :** القرآن لم يذكر عن ابراهيم انه بانى الكعبة مع اسماعيل عندما كان محمد فى مكة · وانما ذكر هذا فى المدينة تأليفا للعرب · وقال نيكتاس البيزنطى بذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع مستندا الى سفر التكوين ·

والجواب : ان الله ذكر ابراهيم وكان معروفا لدى جميع العرب انه رسول الله وبانى الكعبة ، وقد تحدثت التوراة نفسها عن ابراهيم وهاجر واسماعيل (ص١٥ فقرة:١٨ و ص١١ فقرة:٢٠) فكيف يقال : ان محمدا مخترع هذه القصة وقد كان اليهود والعرب جميعا يعرفونها من قبله ؟

وقد رد جوستاف ا · فون جرونيباوم على نيكتاس بأنه لم يستند الى دليل تاريخى فى انكاره ، غير مقارنة ما فى الكتابين · وعدم ذكر الشىء ليس دليل عدم وجوده ·

٣ ـ وقالوا : صرح القرآن بأن الله لم يرسل للعرب رسولا · فكيف يقال : انه أرسل اليهم اسماعيل وابراهيم · مع قول القرآن « **لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك** »(١٩) ؟ ··

والجواب : الذى نفاه القرآن هو ارسال رسل للعرب المستعربة الذين جاءوا من نسل اسـماعيل المختلط بالجراهمة · أما غيرهم فقد صرح

---

(١٨) انظر سفر التكوين : (١١ : ٢٧ ـ ٣١ و ١٢ : ٤ و ٧ ـ و ٩ : ١ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨) وكتاب اسرائيل لمحمد بيومى مهران : ص ١٦٠ ـ ١٦٤ ·
(١٩) القصص : ٤٦ ·

القرآن بذكر ارسال الرسل اليهم كهود المبعوث فى قوم عاد وصالح المرسل الى ثمود واسماعيل المرسل الى جرهم فى أول أدوار طبقة العرب المستعربة (الاسماعيليين) . أما العدنانيون الذين نزل الخطاب للنبى بشأنهم فلم يرسل اليهم رسول قبله ﷺ .

* * *

الوحى

الوحى عند علماء المسلمين هو اعلام الله تعالى أنبياءه اما بكتاب أو برسالة ملك فى منام ، أو الهام بأن ينفث فى روع النبى ما يريد الله ابلاغه له .

سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته فى اليوم الشديد البرد ينفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا .

وفى الحديث أيضا : « بينما أنا ماش اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض ، ففزعت منه ، فرجعت » .

وعند نزول الوحى على الرسول ﷺ يزداد وزنه حتى يثقل على ناقته اذا نزل عليه الوحى وهو راكبها . قال ابن القيم فى زاد المعاد : ان راحلته لتبرك به الى الأرض اذا كان راكبها . وقد قال زيد بن ثابت كاتب الوحى فى صفة حال الرسول حين نزل عليه الوحى وكان فخذه على فخذ زيد : فوالله ما حدث ووجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فظاهرة الوحى كانت مشاهدة ومعها الوعى الكامل بما أوحى به اليه ، ولم يخلط عليه الصلاة والسلام ـ ولا مرة واحدة ـ طيلة العصر

القرآنى الذى يضم كل مراحل التنزيل بين شخصيته الانسانية المـأمورة المتلقية ، وشخصية الوحى الآمرة المتعالية ٠

وكان اذا نزل عليه الوحى ولو ببعض آية دعا أحد كتاب الوحى فأملى عليه ما نزل من القرآن، وضمانا لحفظ القرآن من ان يخلط بالحديث قال : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وفى رواية بحذف لفظ « على » ـ أو من كذب متعمدا ٠

هذه هى بعض صور نزول الوحى ٠٠

أما كيف كان التلقى ، فاختلف الفلاسفة والمتكلمون فى ذلك ٠ وجميعهم يهرف بما لا يعرف ، لأن ذلك مما استأثر الله ورسوله بعلمه ، فلم يرد نص يبين حال النبى فى ذاته ، هل انخلع من صورته البشرية الى صـورة الملكية ، أم انخلع الملك الى البشرية كما زعم الزركشى ، لأن الملك له القدرة على التشكل فى صور شتى ؟ وقد رجح ابن خلدون القول الأول ٠

ولا يمكن انكار الوحى لمشاهدة السابقين لظاهرته على النبى ﷺ ، ولأنه ـ كما قال الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » : قد جرب الله ذلك على خلقه بأن أعطاهم نموذجا من ناحية النبوة ، وهو النوم ، اذ النائم قد يدرك ـ يعنى فى الأحلام ـ ما سيكون من الغيب ، اما صريحا ، واما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير للأحلام ٠

أما عند المسيحية : فالوحى هو الهام الله من يصطفيه من خلقه لتدوين معلومات سمعها ، أو تنبؤات وتوقعات استشعرها ، وليس الوحى ـ عند النصارى ـ خطابا من الله للنبى ، كما هو الأمر فى الاسلام ٠

فالأناجيل تأليف الذين كتبوها ، بالهام وتوفيق ربانى ، وليس ابلاغا من الله لهم بوساطة الملك ـ بنصوص محددة المعنى والعبارة ٠

وأما فى أسفار العهد القديم فتقول : « ان الرب كلم موسى » ، أو « وكان الى كلام الرب قائلا » وجاء فى سفر حزقيال : « ان السـموات انفتحت فرأيت رؤى الله ، صار كلام الرب الى حزقيـال » ٠

ومن ثم : فان انبياء بنى اسرائيل يتلقون الوحى « اما من الله مباشرة ، أو عن طريق « رجل الرب » ، أو عن طريق الرؤيا » .

***

التشكيك فى الوحى

(أ) قال كزيميرسكى : الوحى عزيمة تبلرت ورأى « انقدح فى قلب النبى »(٢٠) . فصدر عنه فى حالة انفعال بالغ وتحمس شديد بحيث لم يكن يستطيع أن يعتبره غير وحى انطقه الله به .

والجواب : وهذا قول ساقط ، لأننا جميعا نصادف كثيرا انقداح آراء فى قلوبنا وارادات مصممة مـن نعزم عليه ، ولكن لا يقوى هذا على أن يكون كالقرآن ، لا فى بلاغة لفظ ، ولا فى رائع المعنى ، ولا فى امساك بمجامع القلوب . وقد كان للنبى ﷺ آراء ناضجة لم تبلغ أن تكون قرآنا. وهو ذاته قد نبه الى أن يكتب القرآن ولا يكتب حديثه ، وقد ميزه قومه بحاستهم اللغوية الأصيلة ، وأحسوا بالفرق بين القرآن وبين غيره . مما يدل على تميز وخصائص للقرآن عرفوها .

(ب) وذكر الدكتور محمد حسين هيكل أن مصريا نقل من المستشرقين القول بأن الوحى ظاهرة مرضية وأن النبى كان يصاب بالصرع، وأن أعراضه كانت تبدو عليه فتعتريه التشنجات وتخرج من فمه الرغوة حتى اذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول انه وحى الله اليه ، وهو ليس الا أثر الصرع .

وقد أجاب عن ذلك رحمه الله قائلا(٢١) : ان « تصوير ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحى على هذا النحو خاطىء من الناحية العلمية أفحش الخطأ ، فنوبة الصرع لا تذر عند من نصيبه أى ذكر لما مر به أثناءها . بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد افاقته من نوبته نسيانا تاما ، ولا يذكر شيئا مما صنع أو حل به خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل . هذه أعراض الصرع

---

(٢٠) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٣١ .

(٢١) حياة محمد ص ٤٠ ـ ٤٢ الطبعة الثانية .

كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبى العربى اثناء الوحى ٠ بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه ٠

« هذا ، ثم ان نزول الوحى لم يكن يقترن حتما بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الادراك الروحى غاية التنبه ، بل كان كثيرا ما يحدث والنبى فى تمام اليقظة العادية » كما حدث فى نزول سورة الفتح على النبى وهو قافل الى المدينة بعد ابرام صلح الحديبية ٠

ينفى العلم اذن أن الصرع كان يعترى محمدا ، ولذلك لم يقل بـه الا الأقلون من المستشرقين الذين افتروا على القرآن أنه حرف ، وهم لم يقولوا به حرصا على حقيقة يلتمسونها ، وانما قالوا به ظنا منهم أنهم يحطون من قدر النبى العربى فى نظر طائفة من المسلمين ٠ أو حسبوا أنهم يلقون ـ بأقوالهم هذه ـ ظلا من الريبة على الوحى الذى نـزل عليه ، لأنه نزل عليه ـ فيما يزعمون ـ أثناء هذه النوبات ؟ ان يكن ذلك فهو الخطأ البين كما قدمنا » ٠٠

« ٠٠ فالصرع يعطل الادراك الانسانى وينزل بالانسان الى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس ، أما الوحى فسمو روحى اختص الله به أنبياءه ليلقى اليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كى يبلغوه للناس ، وقد يصل العلم الى ادراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون ، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين الصادقين الى حقيقتها ، على حين تظل قلوب عليها أقفالها جاهلة اياها لغفلتها عنها » ٠

حقا ان الوحى ظاهرة لم يعرف العلم تفسيرها حتى الآن ٠ ولكن لا عيب على العلم فى هذا ولا عجب ٠ « وعلمنـــا ما يزال قـــاصرا عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة منا » كالشمس والقمر وغيرها من الكواكب التى نراها ٠٠ فاذا كان هـــذا واقعا فى الحياة العادية وفيما نشاهد ٠٠٠ كان البدار الى محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها ـ بما فيها الوحى ـ على الطريقة العلمية محاولة عقيمة واسرافا معيبا ٠

« ولقد كان الوحى بعض ما شهد المسلمون اثناء حياة محمد ، وكان القرآن كلما ذكره لهم زادهم به ايمانا ، وكان منهم أذكياء غاية الذكاء . وكان منهم يهود ونصارى طال الجدال بينهم وبين النبى العربى ثم آمنوا برسالته ولم ينكروا عليه من امر الوحى شيئا ، ولقد حاول قوم من قريش أن يتهموه بالسحر والجنون ، ثم أقروا أنه ليس بساحر ولا بمجنون ، وتابعوه وآمنوا بما جاء به . أما وذلك ثابت يقينا فمما يأباه العلم وتتنزه عنه قواعده انكار حدوث الوحى والحط من قدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم ولا يقرها .

ومع كل هذا فالثابت عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت أنه حينما كان يتغير النبى عند نزول الوحى كان يسمع عند وجهه ﷺ صوت كدوى النحل بينما المصاب بالصرع يسمع أصواتا لا وجود لها فى حس غيره(٢٢) .

وقال درمنجم : غفل المشتغلون بأمور النفس الحضريون الذين افترضوا وجود الوحى من الصرع والاستيحاء والخيال المتقد ـ عن حياة الخيام فى الصحراء ، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الحنق والدهاء ليبقى زعيما بسيطا لعصبة من الأعراب .

فحياة محمد كانت منتظمة موزونة قبل بعثته بما يشمل بعد النظر ، وما انفكت تكون كذلك بعدها الا فى حالات الوحى . قال أرميا « كالأولياء الصادقين ، وكأنبياء بنى اسرائيل . انسحق قلبى فى وسطى . ارتخت كل عظامى . صرت كانسان سكران ومثل رجل غلبته الخمر من أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » .

ثم ان الطب لم يعرف حالة واحدة كان فيها المريض بالهيستريا أو بأى نوع من هذه الأمراض العصبية قال ـ وهو واقع فى غيبوبة ـ كلاما مفهوما له معنى معقول ، وانما كل من يشاهد المريض ـ وهو على حالته هذه ـ يسمع منه هذيانا ، بخلاف حال النبى ﷺ .

---

(٢٢) رابح لطفى جمعة : القرآن والمستشرقون ص ٢٥ نقلا عن « أسد الغابة » وكذا ص ٢٧ نقلا عن الأساتذة كرتييه والاندوز وشاركو فى تعريفهم للهيستريا .

ومثل هذا ما قاله عاموس المدثر ببردته كمحمد ٠

ولم تنشأ رؤى محمد ووحيه عن مرض فيه ٠ بل كانت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحى ٠ وهنالك ظواهر مشتركة بين مريض الأعصاب ٠ أو المهووس ، وبين الموحى اليه الصادق فالأول منفعل غير فاعل ، والآخر مبدع فاعل ٠

« ثم ان من الجائز أن يقال : ان البنية المريضة قليلا تساعد على التصوف ، ويزيدها التصوف مرضا ٠ والحق أن محمدا كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام ، عقد كان تام الصحة الى أن بلغ سن الكمال ، ولم تبد العوارض عليه بعد هذه السن الا عند تقبل الوحى ٠

وأنت اذا استثنيت هذا ، وأنت اذا عدوت المرض الذى استولى عليه فى الستين من عمره رأيته لم يصب بغير وجع الراس ثلاث مرات بسبب أسفاره الطويلة تحت وهج الشمس ، فيعالج بوضع المحاجم على رأسه »(٢٣) ٠ ولقد قال بلاتوف فى تاريخ العالم : ان غاية ما نستطيع الجزم به هو تبرئة محمد (ﷺ) من الكذب والمرض(٢٤) وقال المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون : ان محمدا (ﷺ) كان على تمام الاعتدال فى مزاجه ٠

وقد قال المستشرق ر ٠ ف ٠ بودلى فى كتابه « حياة محمد » ما يأتى : « يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى ظل يتمتع بها « محمد » حتى قبل مماته بأسبوع واحد ٠ وما كان الصرع ليجعل من احد نبيا أو مشرعا ٠ وما رفع الصرع أحدا الى مراكز التقدير والسلطان يوما ٠ وقد كان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنونا أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو « محمد » ولا شك » ٠ ويقول ماكس مايرهوف ـ فى كتابه « العالم الاسلامى » : لقد أراد بعضهم أن يرى فى محمد (ﷺ) رجلا مصابا بمرض عصابى ولكن تاريخ حياته ـ من أوله الى آخره ـ ليس

---

(٢٣) حياة محمد لدرمنجم ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ٠
(٢٤) القرآن والمستشرقون ص ٢٧ ٠

فيه شىء يدل على هذا ، كما أن ما جاء به فيما بعد ـ عن التشريع والادارة ـ يناقض هذا القول .

ونقل الأستاذ زكريا هاشم عن الدكتور يحيى طاهر أستاذ الأمراض العصبية بكلية الطب جامعة القاهرة : ان النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية ، ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ يفقد معها المريض شعوره . أما الأحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض ، فى أثناء النوبة الصرعية فما هى الا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالانسان أو فكر فيها ثم حفظت فى ثنايا المخ . وتتكرر هذه الأحلام أو الهلاوس بتكرار النوبات بشكل واحد .

وبتطبيق هذا على ما كان يحدث للنبى ﷺ عند الوحى . نجد الوحى شيئا آخر . فالقرآن ليس شيئا متكررا فى كل مرة نزل فيها الوحى .. والمتكرر ليس على نمط واحد . ولكنه فى كل مرة يأتى بجديد نافع مرتبط بما قبله وبما بعده . وبلغة فصحى لم يتعلمها النبى ولا نطق بها أحد قبل الرسالة . فكان هذا دليلا على أنه رسول الله ، وأن ما نزل عليه هو وحى الله وليس نتيجة صرع .

(جـ) مغالطات فلهاوزن :

أما المشرق الألمانى « يوليوس فلهاوزن » فى كتابه « تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » فيقرر أن الذات الالهية فى الاسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية . وليس كاله الفلاسفة أشبه بمعنى مجرد .

ولكنه يقول : « يبرز فى القرآن شأن القدرة الالهية تارة ، وشأن العدل الالهى تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يجىء به النبى ـ عليه السلام ـ دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ولا يشعر « محمد » ـ عليه السلام ـ بما فى ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظرى فى العقائد (Dogmatics) .

فالكاتب يتسلل برفق ودون الجهر بما يبطنه الى التشكيك فى القرآن بأنه مضطرب ويقول أن اضطرابه فى ذكر صفات الله « بحسب ما يجىء

به النبى – فليس بحسب ما ينزله الله عليه . ولاشك انه جاهل أو متجاهل للحكمة فى ذلك . فالقرآن يرمى الى اشعار المؤمن بأنه داخل فى قدرة الله المطلقة فيخشاه ولا ينساه ، ثم يشعر بعدله فتطمئن نفسه الى صنع مولاه فهو كقوله سبحانه « **غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول** »(٢٥) ، ولا تناقض الا فى ذهن الكاتب وأين التناقض فى اضافة صفتى القدرة والعدل أو الجبروت والرحمة الى الله تعالى ؟

ثم قال : ان ما قرره الاسلام من أشياء تميزه عن اليهودية والنصرانية انما هو تعريب له أو تحريف له ، بحيث يأخذ الشكل العربى ، وما هو بعربى كالروايات المعربة والنظريات الاجتماعية والسياسية المستوردة .

وتجاهل الكاتب أن النبى ما كان يقرأ العبرية ولا العربية حتى يعرب الكتاب المقدس ، كما تجاهل أن المسيحية واليهودية من قبله كان لهما دعاة كبار لم يستطيعوا صبغ المجتمع العربى بدين منهما . وهل فى عالم المعقول أن يترك الأصل – مع القدرة عليه ويصار الى التقليد ؟

ثم اتهم فلهاوزن النبى بأنه لم يرد أن يتجاوز بأتباعه الدائرة التى ترسمها رابطة الدم ، « بل من الجائز أيضا أنه لم يكن يستطيع تصور امكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم ، ولذلك فانه لم ير أن رسالته هى أن يضم الى دعوته أتباعا متفرقين هنا وهناك .. فكان يطمح الى أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية له » .

وفلهاوزن يتجاهل بدعواه أن الاسلام عنصرى – ما جاء على لسان رسول الله نفسه « وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » ويتجاهل المعروف من أن المواطن المسلم وهو فى دولة الاسلام ، كل معتنق للاسلام مهما اختلف لسانه وجنسه ، وتجاهل نصوص القرآن فى عالميته للناس كقوله جل شأنه « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** »(٢٦) ، وسنفرد لاثبات أن النبى خاتم المرسلين فصلا خاصا ، وفيه نبين أن من دواعيها ما ذكرناه من أنه دين عالمى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

---

(٢٥) غافر : ٣ .

(٢٦) الفرقان : ١ .

(د) تشكيكات كزيميرسكى فى الوحى :

١ ـ وكزيميرسكى لم يتهم الوحى بأنه ثمرة الصرع ٠٠ ولكنه يمهد فقط لقبول هذه القضية ، فيقول : ان النبى كان مصابا بالصرع فى طفولته ، وهذا الصرع هو الذى جعل حليمة السعدية تسلم « محمدا » الى أمه قبل انقضاء الأجل المضروب بين حليمة وآمنة(٢٧) ٠

والصرع مرض منفر والأنبياء يستحيل عليهم الاتصاف بما ينفر الناس منهم ويبعدهم عنهم ، وسيأتى بيان السبب عند ذكر شق الصدر للنبى ﷺ ٠

٢ ـ كما لجأ « كزيميرسكى » الى التشكيك فى الوحى بطريقة ثالثة ، وهى ابراز الوحى فى صورة حلم ، فأخذ برواية ضعيفة رواها ابن هشام فى أول ما نزل من الوحى ٠ وهو قوله تعالى من سورة « العلق » : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق** »(٢٨) فقال : ان نزولها كان مناما ٠٠ وهى رواية تخالف الصحيح الذى رواه البخارى من نزول جبريل عليه بالسورة جهرا وعلانية ، وزاد ذلك وثوقا ما رواه البخارى فى نزول آية المدثر عن جابر عن رسول الله ﷺ قال « بينما أنا ماش اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى ٠ فأنزل الله تعالى « **يا أيها المدثر ٠ قم فأنذر ٠ وربك فكبر ٠ وثيابك فطهر ٠ والرجز فاهجر** »(٢٩) فحمى الوحى وتتابع » ٠

وقد تبين من قبل أن الوحى قد يكون رؤيا صادقة وقد يكون فى صور أخرى سبق ذكرها وقد أشار اليها القرآن فقال : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء ، انه على حكيم** »(٣٠) ٠

٣ ـ وفى موطن آخر ينسب الى محمد ﷺ انزال الآيات فيقول : وقال محمد « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** »(٣١) كما يقول : ان

---

(٢٧) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٢٢ ٠

(٢٨) العلق : ١ ، ٢ ٠ (٢٩) المدثر : ١ ـ ٥ ٠

(٣٠) الشورى : ٥١ ٠ (٣١) آل عمران : ١٢٣ ٠

محمدا نسب هزيمة أحد الى غرور المسلمين ، فأنزل القرآن بذلك .

وكزيميرسكى بهذا يدل على جهله ، فالغرور الذى نسبه الى المسلمين لم يكن يوم أحد ، ولكنه الاعتماد على الكثرة يوم حنين « **ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكمفلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت** »(٣٢) ثم ان أحدث بحوث علماء الطبيعة الآن أثبتت امكان وجود الوحى بالأدلة العلمية(٣٣) .

* * *

الزواج بخديـــجة رضى الله عنها

● هل كان زواج النبى خديجة لهوى مادى ؟

اتهم بعض المستشرقين النبى بأنه كان يهاب خديجة لمالهـا الـذى يفيد منه كثيرا .

وقد أجاب عن هذا الأستاذ « ميور » بقوله : ان الرسول لم يتمتع بتلك الثروة . ولم يتلذذ بها . بل قضى حياته فقيرا .. ويروى أنه مات ودرعه مرهونة .. « وزواج أساسه المادة لا يمت الى السـعادة بشىء . بينمـا نحن نعلم أن الرسول كان سعيدا مطمئنا خلال السنين الطوال التى قضاها مع زوجته خديجة بالرغم من اضطهاد قريش وايذائها له . وطالمـا حن اليها بعد وفاتها ، وذكرها بالخير وعرفان الجميل » .

وأجاب « ستوبارت » بأن الرسول كان فى عصر شاع فيه تعـدد الزوجات سواء بين الملوك والأمراء ومن سبقه من الأنبياء . ولكنـه لم يجرح قلب خديجة . ولم يثر غيرتها بزواجه من امرأة فى حياتها .

وقال آخر : ان زواج الرسول بخديجة كان فاتحة حياة زوجية سعيدة. اذ كان محمد مثال الوفاء بالرغم من الفرق الكبير بينهما فى السن .

وقال الأستاذ «لان بول»:لو صح ما نسب البعض من أن وفاء الرسول

---

(٣٢) التوبة : ٢٥ .

(٣٣) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ، ص ٥٥ ، ٥٩ .

لخديجة لم يكن مبعثه الاخلاص فقط · بل كان التهيب من مقامها المـالى والاجتماعى خشية مطالبتها اياه بالطلاق ·· لرأينا محمدا يحمد الله على وفاتها · ويرمى بذلك العبء الثقيل متهافتا الى حياة أكثر حرية · ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك · اذن ما كان هـذا الوفاء الا نتيجة حب وشكر لهـا (٣٤) ·

* * *

حديث الافك

● هل يحتمل صدق حديث الافك ؟

قال « سبرنجر Sprenger »: ليس هناك دليل على أن عائشـة قد اجتازت حرمة الزوجية · ولكن بما أنها زوجة رجل شيخ وجـدت نفسها وحيدة فى خلوة مع شاب · فلا يستبعد أن تصح التهمه · غير أن الرسول وجد فى الوحى ملجأ يأوى اليه ابان هذه الكارثة · ويؤيد هذا نفر آخر من المؤرخين الأجانب منهم : (Scholl) و (Abbot) .

وهى اقوال لم يستطيوا أن يقيموا الدليل على ثبوتها ، كما أنهم لم يعنوا بمناقشتها مناقشة علمية نزيهة ، يحاولون فيها اثبات «حادثة الافك» ، أو نفيها بأدلة تاريخية قاطعة ، وانما حكموا المنطق الذى لا يتفق مع الطريقة العلمية الحديثة القائمة على سرد الحقائق مجردة · ثم نقدها وتحليلها للخروج من ذلك كله برأى سليم قائم على أساس البحث والتمحيص · غير أن بعض المستشرقين ـ ممن أطرحوا الهوى وترفعوا عن التحيز وسلكوا مسلك الدليل المادىوالاستنتاج الصحيح ـ استبعدوا حديث الافك · منهم موير حيث قال بعد الاشارة اليه : « ان سيرة عائشة قبل وبعد الحادث لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة(٣٥) ·· وأجابت زاهية قدوره عن سؤال طرحته فقالت (٣٦) : هل كان من المعقـول أن يكون لعائشـة علاقة من أى شـكل كان بصفوان بن المعطل ؟ نحن نجزم بانكار ذلك كل

---

(٣٤) عائشة أم المؤمنين ص ٥٨ ـ ٥٩ ·
(٣٥) حياة محمد لموير ص ٣٠٤ ·
(٣٦) عائشة أم المؤمنين ص ٩٧ ـ ٩٩ ·

الجزم . ولا سيما اذا تذكرنا أن الذى أشاعه هو عبد الله بن ابى بن سلول زعيم الخزرج فى المدينة ، وقد اشتمل قلبه على بغض الرسول والحسد له ، معتقدا أن الرسول سلبه ملكه ، وتذكرنا رغبة عبد الله فى تهديهم الاسلام ليفسح له المجال الى الانتصار على رجال الأوس ، والتزعم على أهل المدينة . فكان تارة ينافس زعماء الأوس بالتزلف الى النبى وأخرى يلجأ الى أعداء الاسلام ، ويؤلبهم على الرسول والمسلمين ، فلقد وجد فى حديث الافك فرصة سانحة يطعن فيها الرسول ويشهر بحليلته ، ويروى أنه قبيل حديث الافك بأيام قليلة تنازع رجلان من الأنصار والمهاجرين على بئر ماء واقتتلا فغضب عبد الله بن أبى ابن سلول فقال : « أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما عدنا وجلابيب قريش الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم .. وبلغ الحديث مسامع الرسول ﷺ . وأسرع عبد الله فحلف بالله ما قلت هذا ولا تكلمت به ، وأحر برجل هذه أخلاقه وتلك سمعته أن تسقط روايته .

أما من جهة المتهم « صفوان بن المعطل » فسيرته لا تستدعى الشك ، ولم يذكر بسوء قط . بل انه كان مؤمنا بالرسول ودعوته . غيورا على الاسلام . فجاهد وحضر كثيرا من الغزوات ومات شهيدا . فاحترامه ومهابته لزوج النبى وبنت الصديق التى كان أبوها يحمل راية المهاجرين فى الغزوة نفسها كانت أعظم من أن تسمح له بالتفكير فيها بسوء .

أما عائشة من جهتها ـ وهى التى تقول : انها لم تعقل أبويها الا وهما يدينان بدين الاسلام ، والتى نشأت وترعرعت على فضائل الدين الحنيف ، فى بيت قائده الأكبر ، والتى تزوجت نبيه العظيم فكانت تؤمن به . وتعمل بدينه ـ فأقول : انه من الظلم الشك فى طهرها ، ولاسيما أن هذه العلاقة المزعومة كانت نتيجة صدفة واحدة ، والا لم تكن لتخفى عنهن قالة السوء والحساد والمنافقين والضرائر .

ثم ان عائشة كانت مع صغر سنها تحب الرسول حبا جما • ومن مظاهر هـذا الحب غيرتها الشـديدة ، ولم تتورع عن تدبير المؤامرات ضـد سـائر ضرائرها وبخاصـة الجميلات والمحبوبات لدى الرسول • والى جانب ذلك الحب الصاخب وجد الاعجاب والفخر بزوج كان أعظم رجل تطمع فيه المرأة ، فحصولها عليه اذن كان النعمة التى لا يضاهيها شىء • وهى التى تقول « لقـد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة : لقـد نزل جبريل عليه السـلام بصورتى فى راحته حين أمر النبى أن يتزوجنى ، ولقـد تزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، ولقد توفى وان رأسـه لفى حجرى • ولقد قبر فى بيتى ، ولقد حفته الملائكة فى بيتى ، وان الوحى لينزل عليه فى أهله فيتفرقون عنه وان كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه ، وانى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة عند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما »(٣٧) •

وهل من المنطقى أن من تحب رجلها وتعجب به ذلك الاعجاب الشديد تبدله بمن هو أقل منه منزلة ، خاصة بعد ما نالت من زوجهـا حبا وتقديرا ، ليس فى امكان أحد أن يعطيها لها ؟

وهل من المعقول أن يكون محض صـدفة الاجتماع الأول سببا فى علاقة كالتى اتهمت بها دون سابق معرفة أو اتصال ؟

قد يقول البعض : انها افتتنت بشبابه • فهل لهذا السبب من القوة بحيث يجعلها تتجاوز عقيدتها الدينية وطبائعها العربيه وتنساق مع رغائب طارئة ـ كما يريد البعض أن يصور ـ تهدم كل ذلك الكيان الضخم الـذى امتلأت به نفسـها من الايمان والاسلام ، وللرسول من الشباب والحيوية والنضارة ما يوازى شباب الدنيا كلها • فما أكثر الشباب فى سنهم وهم شيوخ فى قلوبهم وعواطفهم وحيويتهم • وقد كان للرسول قدرة فائقة فى محادثة نسـائه وملاطفتهن وارضائهن بحسـن التعبير عن عواطفـه الزاخـرة ونشاطه الجم • فما أكثر ما صنع • وما أقل ما تقاعس وهدأ !! فقد قضى

(٣٧) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره : ج ٨ ص ٧٠ ه القاهرة سـنة ١٣٥٧ ه (١٩٣٩ م) •

حياته كلها محاربا مجاهدا فى سبيل نشر رأية الحق والفضيلة فى الأرجاء الواسعة ، وهدم الباطل ، وثار على الظلم والفساد بتلك الحيوية ورحابة الصدر التى تحملت ثقل الجهاد ومرارة الحياة ، ولكن ذلك لم يشغله عن العائلة والبيت ، فكان أحسن أب ، وأرحم زوج وأرقه ، عادلا أعظم العدل • رغم صعوبة الموقف فى الجمع بين عدد كبير من النساء • فرجل هذا شأنه وتلك صفاته ، لا تستطيع أى زوجة الا أن ترتبط به أشد الارتباط ، وأن تخلص له كل الاخلاص ، وأضف الى ذلك ما قاله الطبرى فى تاريخه (جـ ٢ ص ٢٧٠) والسهيلى فى الروض الأنف (جـ ٢ ص ٢٢٤ هامش ط القاهرة سنة ١٩١٤) عن صفوان بالذات من أنه كان رجلا حصورا لا يأتى النساء •

فلذلك كله لا يبقى أدنى شك فى براءة عائشة • وقد أجمع على ذلك المنطق المعقول والذكر الحكيم •

وقد كشف حديث الافك عن متانة عائشة وصلابتها أمام غمرة المهاجمين ، وذلك بموقفها موقف المعتمد الواثق بالنفس ، المعتقد أنه لا بد مبرأ مما نسب اليه ، ما أقسى ما رأت وما يرى البرىء المتهم والصادق المكذب من عناء نفسى !! كما كشف عن نبل أخلاقها اذ صفحت عمن أساء اليها وشملتهم بعطفها • وكانت تكره أن يسب حسان عندها •

وفى ردنا على المستشرق « سفارى » ما يعد تكمله لحديث الافك هنا ، لا نعيده منعا للتكرار • كما فيه مناقشة أخرى لما يثار حول زواج زينب بنت جحش ، وزواج ميمونة وجويرية وريحانة •

***

وصف النبى بأنه شاعرا أو ناثر مبدع

قال سفارى : ان محمدا أخذ ينظم القرآن ، وقال فرانك د • فوستر : « انه ناثر مبدع ، ابتكر النثر الفنى الأدبى » •

وكل ما كان من هذا القبيل مردود • لأننا نحن العارفين بالشعر منذ عهد محمد ﷺ الى الآن نعرف الشعر جيدا بضروبه وبحوره ، وليس

القرآن منه ، وان كان للقرآن تأثير فى السامع أعظم من الشعر ، بله مثله .
ولا شك أن الشعراء نالوا اعجاب الناس بأناشيدهم الرنانة ، وملكوا النفوس وتصرفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغر ، ولكن هل نفعوا الانسانية وهم يهيمون فى أودية الخيال ؟ . كلا . ولذلك لم يكن لهم فى جمهورية أفلاطون نصيب ولا منصب ، بل انهم فى العصور الوسطى كانوا موضع صغار وازدراء . ويعتبر « البارودى » فى مصر أول شخصية ذات وزن سياسى واجتماعى تستعلن بقول الشعر فى العصر الحديث وأمثاله قليلون عبر التاريخ كأبى فراس الحمدانى .

والشعراء .. من « هوميروس » الى « امرى القيس » فمن بعده من شعراء الأمم – لم يكن منهم الا اثارة كامن العواطف ، وتنبيه النائم من الأفكار ، أو احداث لذة أو ألم فى النفوس ، ولا ينتظر منهم أن يحلوا معضلات الحياة الانسانية ، وعويصات مشكلاتها ، وسبب ذلك أنهم فى سيرتهم وأعمالهم لا يقدمون للناس المثل التى تحتذى ، والأسوة التى يقتدى بهم فيها ، ولقد وصفهم القرآن الحكيم أصدق وصف عندما ذكر سيرتهم بقوله : « **والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** »(٣٨) .
وبهذا سجل القرآن الحكيم على الشعراء أنهم لا يؤثرون بشعرهم اللطيف الحلو على المجتمع البشرى ، لأنهم يهيمون فى أودية الأفكار والعواطف بلا ايمان ولا عمل صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان – الايمان والعمل الصالح – لكان لشعرهم أثر بارز فى المجتمع البشرى . وعلى كل فانهم ليسوا من الاصــلاح فى شىء ، ولا الاصــلاح من شأنهم . ولذلك لا يقدرون على القيام بمهمة اصلاح العالم وقيادة الناس الى الرشاد والكمال والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الأمم فى غابرها وحاضرها »(٣٩) .

ولهذا فان اتهام المستشرقين وأمثالهم من كفار الجاهليين قــول معلوم

---

(٣٨) الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧ .

(٣٩) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى ص ١٤ – ١٥ .

بطلانه أريد به الحط من قيمة محمد ﷺ وصرف الناس عن طلب الآيات البينات التى أنزلت عليه لدراستها ٠

وقد تناول المستشرق « ديزيريه بلانشيه » القرآن فى كتابه « دراسات فى تاريخ الأديان » فقال : كفى هذا القرآن مجدا وجلالا ان الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه ، بل لم يزل غضا كأن عهده بالحيـاة أمس ٠

ولا شك أن هذا هو بعض أسرار الاعجاز الالهى للقرآن ٠ فلو كان فعل محمد ﷺ لكان ابهاره سامعيه ٠ ولكانت طراوته موقوتة بعصره وجيله وبالجيل الذى بعده على الأكثر ثم لا يستساغ ، شأن كل عمل أدبى بشرى ٠

وقد حاول « جوستاف لوبون » الكشف عن سر اعجازه فقال : « ان القرآن وما اشتق منه هو الى القطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب » ٠

ولا شك أن تطور الشعوب أمر متفق عليه ، وليس لبشر التكهن بالغيب حتى يرسم للبشرية دستورا يناسب كل طور ، فلم يبق الا أن يكون القرآن من مصدر غيبى من خواصه القدرة على معرفة غيب الشعوب فى تطورها ٠ وأعظم من ادراك التطور أن يصوغ دستورا واحدا بنص واحد يجد كل جيل فى أضوائه هدايته ، وما يلتئم مع حاجته « **صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة** »(٤٠) ٠

وأمام اعجاز نصوص القرآن وقدرتها على أن تظل مرسلة اشعاعات الهدى والهامات الرشاد الى كل عصر وجيل وطبقة ومستوى علمى ٠٠ وقف « جون كنجسلى بيرج » رئيس ادارة النشر لمجلس البعثات الأجنبية فى المؤتمر السنوى الخامس الذى أقامه معهد الشرق الأوسط بـ « واشنطن » سنة ١٩٥١ داعيا الى استلهام القرآن وقال : وانى أحب أن أتخير آيات من القرآن تحرك لدى الالهام الدينى وأعلقها نصب عينى على جدار مكتبى (٤١) ٠

وقد قال « درمنجم » فى كتابه « حياة محمد » يرد على القائلـين

---

(٤٠) البقرة : ١٣٨ ٠

(٤١) بشرى زخارى ميخائيل : محمد رسول الله ٠٠ هكذا بشرت الأناجيل ص ٣٥ ٠

بأن القرآن عمل أدبى لمحمد ﷺ : « ان كان نبى يجب أن يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ويسمى « كرامة » .

والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فان جماله الأدبى الفائق ، وقوته النورانية لا يزالان الى اليوم لغزا لم يحل ، وهما يضعان من يتلوه - ولو كان أقل الناس تقوى - فى حالة خاصة من الحماسة .

لقد تحدى « محمد » الانس والجن أن يأتوا بمثله . وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحى الاله والهام الشياطين »(٤٢).

* * *

● **تأثر زكى مبارك بالمستشرقين :**

لقد كان زكى مبارك مفتونا بالثقافة الغربية ومسالكها الفكرية ، وكان لهذا أثره فى اتجاهاته الفكرية .

وقد تناول بقلمه الأسلوب القرآنى واعجازه ، فزعم أن القرآن يعطينا صورة للنثر الجاهلى وان لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية الجاهلية . لأن القرآن نزل بلسان عربى ، فهو لا ينبو عن أذواق العرب وأفهامهم ، ولا يخرج عما ألفوا من طرائف التعبير والبيان .

وقد رد عليه مقاله الشيخ عبد المتعال الصعيدى قائلا : لو كان القرآن صورة مألوفة للعرب من نثرهم لما اضطربوا فى أمره حتى قالوا عنه مرة : انه شعر ، ومرة : انه سحر ، ومرة : انه كهانة . فمثل هذا الاضطراب لا يقع فى شىء مألوف لهم ، ولا فى شىء طرائقه معروفة عندهم ، بحيث لا يخرج عما ألفوه فى نثرهم .

ولو كان هذا الذى زعمه زكى مبارك شأن القرآن عندهم لما كان أحدهم

---

(٤٢) المرجع السابق ص ٣٤ - ٣٥ .

أذا سمع آى القرآن اهتزت نفسه ، ولم ينكر اعجازه ، وربما أسلم لمجرد سماعه .

وقد كان نثر الجاهلية خطبا وأمثالا ، وحكما وأسجاعا ، ومحادثات ومناظرات اما مرسلة أو مسجوعة ، وقد جاء القرآن بآياته البينات فريدة فى أسلوبها . ومع انفراد القرآن بأسلوبه لم يكن هناك مانع يمنع العرب من فهمه ، فقد نزل معجزة تناسب ما اشتهر به العرب من الأسلوب الفصيح ، ولكنه ليس من جنس هذا الأسلوب الى الحد الذى يعد به شاهدا من شواهد النثر الجاهلى .

والقرآن فى اعجازه للعرب أرباب البيان كالعصا فى يد موسى عندما صاغ الله منها المعجزة للسحرة بين يدى فرعون والملأ من قومه . كل من المعجزتين يشاكل ما عند القوم فى صورة من الصور ويباين ما عند القوم فى الحقيقة والجوهر وباقى البناء والشكل .

وقد قال زكى مبارك ان معجزة القرآن بقوة روحه ومعناه لا بلفظه وأسلوبه ، ليخرج من ورطته التى تورط فيها . فانحرف به الطريق عن الهدى . اذ أن بلاغة القرآن حين نقول انها فى لفظه لا نعنى بها الزخرف ، وانما نعنى حسن مطابقة اللفظ لمقتضى الحال ، وحسن دلالته على المعنى المراد . وقديما سئل أحد النقاد عن البلاغة أترجع الى اللفظ أم الى المعنى ؟ فقال : أى شقى المقص يكون هو المقص الذى يقطع ؟

ان القرآن معجز بالمبنى والمعنى وبسر من أسرار الله فيه لا ندريه . ولا يخضع لما نسميه قواعد النثر الفنى أو الأدبى ، وان كانت هذه القواعد مما يحتويه القرآن الكريم .

* * *

« جب » ودعوى تأثير البيئة فى القرآن

قال : « هنرى جب H. A. Gibb » فى كتابه : «المذهب المحمدى» أن محمدا صنعته بيئته الخاصة بمركزها الثقافى والدينى والتجارى . وبحكم مركزها بين العالم وصلتها بأرقى شعوبه ، وبحكم ما أصاب اهل

عصره من انحلال وتفلت عن الدين اقتضى أن يصلحه فى ظلال الدين الذى ملك على مكة وحجاجها مشاعرهم ، فما فى القرآن ثمرة طبيعية لنشأة محمد فى مكة ، وقد نجح لأنه كان واحدا من المكيين ، وما كانت حرب قريش للنبى الا خشية على حياة زعمائها الاقتصادية أن يزلزلها نظام محمد الجديد ، وأحيانا خشية على السلطة السياسية التى تبوأها بعضهم أن تسلب من أيديهم · فالقرشيون يؤمنون بالله كما يؤمن ، وان كان قد وحده توحيدا لم يصلوا هم ولا غيرهم اليه ·

وزعم « هنرى جب » أن قريشا حاربت محمدا كذلك بسبب ما أخذه عن المسيحية وبخاصة السريانية من أخبار الجنة والنار ، وهم لا يؤمنون بالجزاء الأخروى أبدا ·

ثم يضطرب « جب » فينكر أن تكون حرب العرب لمحمد صلى الله عليه وسلم سببها التمسك بالقديم كما هو مفهوم من الآية « **بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون · وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون · قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون** »(٤٣) · فـ « جب » يريد أن نكذب القرآن ونكذب السنن الطبيعية المشاهدة من احتفاظ كل شعب بتقاليده ومن مقاومته بعنف كل ثورة عليها وان كانت الثورة اصلاحية تماما ·· ثم نصدقه دون دليل على مزاعمه ·

* * *

● **تأثر طه حسين بالكاتب :**

وهذه الفكرة المسمومة قد أثرت فى كتاب من تلامذتهم فى الغرب ، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أهداه الى صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٢٦ فقد جاء فى كتابه : « ان القرآن نزل فى مكة وهى ذات حضارة قائمة

---

(٤٣) الزخرف : ٢٢ ـ ٢٤ ·

فصور الحياة الجاهلية تصويرا صحيحا ، ورد على فرق من العرب كانت تمثل اتجاهات دينية ومذهبية فى البلاد العربية نفسها . ولذلك فهو يعبر عن هذه الحياة العربية تعبيرا صادقا ، ولا يعبر عن غيرها ، ويرسم للعرب طريق الحياة الفضلى ، وما حديث القرآن عن مودة النصارى للنبى الا لأن البيئة التى ظهر فيها لم تكن نصرانية ، ولو ظهر النبى فى الحيرة أو نجران للقى من نصاراها ما لقى من مشركى مكة ويهود المدينة »(٤٤) .

● **تعقيب :**

وهذا انحراف عن الحق الذى جاء به القرآن واثبته التاريخ . اما القرآن فقد قال عن سبب المودة شيئا آخر غير الذى قاله طه حسين « **ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** »(٤٥) فالسبب اذن هو أن النصارى العرب كانوا وراء قساوسة ورهبان متواضعين للحق ، ليسوا تجارا بالدين ، وأنهم عرفوا صدق محمد ﷺ فى مبادئه التى نادى بها والتى سماها الله الاسلام . واما التاريخ فقد قرر أن النبى كان بعيدا عن نصارى الحيرة وشمال غرب الجزيرة التابعين للروم ، وعن الروم انفسهم . ومع هذا فقد كانت حروب بين النبى وبينهم كان الدافع اليها من نصارى الروم ليس الدفاع عن المسيحية ، وانما هو الحرص عى بقاء بلاد العرب مستعمرة للروم ، فطه حسين انما يكذب القرآن ـ من حيث لا يدرى ـ بدعواه هذه .

وقد سيطرت نظرية آثار البيئة على كتاب القرن الماضى وأوائل هذا القرن تأثيرا كبيرا حتى أصبح يفسر بها ظواهر التاريخ ، فقال طه حسين : « ان تعلم اسماعيل لغة العرب من جرهم هو أسطورة . فهناك فرق كبير بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين ، وسبب الأسطورة ـ فيما يرى ـ هو رغبة مكة ، فى قيام وحدة سياسية وثنية مستقلة بين الجنوب

---

(٤٤) الشعر الجاهلى : ص ٢٨ .
(٤٥) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ .

والشمال تحمى البيئة العربية من شر تدخل الروم والفرس والحبشة فى شئون العرب الدينية والاقتصادية »(٤٦) ٠

وهو بهذا يكذب هجرة ابراهيم باسماعيل الى مكة رضيعا حيث أسكنه بين رعاة لم يكن له خيار فى تعلم لغتهم وهم الجراهمة ٠

* * *

● **الرد على « جب » وطه حسين :**

ان طه حسين يمثل تلامذة الغرب والمستشرقين أكمل تمثيل ، فهو ربيب أفكارهم ومناهجهم حتى أنهم لو سلكوا جحر ضب خرب لسلكه معهم ، فنحن نراهم يهاجمون رجال الدين فى بلادهم فيهاجم هو ـ فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر ـ رجال الأزهر هنا بقوة ، وينثنى الى رجال الكنيسة القبطية ناقدا فى رفق ٠

و « جب » يجنح الى سلسلة من الخيال الفكرى تؤدى الى نتيجة خاطئة هى أن القرآن بشرى المصدر ، فهو نضح البيئة العربية المكية ، وتعبير عن مطامحها الاصلاحية فهو بهذا ليس دينا عالميا ولا وحيا الهيا ، ويقرر فى كتابه « المذهب المحمدى » أن القرآن أخذ من الوثنية والمسيحية واليهودية مضمونه ، كما قال الجاهلون فى عهد محمد عليه الصلاة والسلام « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها »(٤٧) ولكن فى عبارة جديدة ٠

وطه حسين يقول : القرآن رد على المسيحية واليهوديه والوثنية بعد أن حكى مفاهيمها جميعا ٠ وحكايه هذه المفاهيم انما هى انطباع بالبيئة ، والرد انطباع آخر وثمرة الانفعال بالانحراف الشديد فيها والغضب عليه ، والنتيجة التى يسلم اليها هذا القول هى أن القرآن بشرى حين يقال : «أخذ» من البيئة والثقافات التى فى طوائفها ، وحين يقال « رد » على ذلك الذى جاء على لسان المسيحية والوثنية ٠

---

(٤٦) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ٠
(٤٧) الفرقان : ٥ ٠

وقد عقد الدكتور محمد البهى فصلا عن بشرية القرآن وازن فيه بين « المذهب المحمدى » و « الشعر الجاهلى » وصل فيه الى النتيجة التى ذكراها(٤٨) ورد عليهما وقال : ان العرب لم يكونوا على علم واسع بهذه الدرجة التى يضمها اطار القرآن الكريم بمعلوماته المنوعة الرائعة المبدعة بل كانوا كما قال القرآن : «**كانوا من قبل لفى ضلال مبين**»(٤٩) ، ورسالته لم تكن موجهة لقومه خاصة حتى توصم بالطابع المحلى ، وانما كانت للأميين وغيرهم ـ العرب وسواهم ـ القارئين وغيرهم . لا يحدها زمان ولا مكان كما قال القرآن نفسه : « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم** »(٥٠) .

والنبى ليس نضح البيئة . بل هو مبعوث الله « **هو الذى بعث** » سبحانه وتعالى ، والنبى ليس فى مقاله انطباع رجل بالبيئة والتيارات الفكرية التى تولدها الحياة الاجتماعية بها « **ان اتبع الا ما يوحى الى** »(٥١) ، والمستشرقون الذين يؤمنون بأن الانجيل وحى نازل من السماء ، ويكفرون بأن القرآن وحى نازل من السماء ، يقولون بترجيح احد المتماثلين بلا مرجح . وهو ما لا يقبله المنطق .

* * *

● اضطراب « بودلى » :

فهو يصر على أن القرآن كتاب بشرى تحتاجه البيئة ، وكان موائما لها ، ولذا كان نجاحه فيها . ثم يقول : انه فتح الأمصار وغزا العالم بخواص ذاتية فيه . ثم ينتكس ويقول : وقد رفضته فرنسا لعدم صلاحيته لها وكأنه عنصر غريب دخل الجسم فلفظه ، واليك بعض الاضطرابات بعبارة « بودلى » :

---

(٤٨) راجع : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمال الغربى ص ٢٠٧ ـ ٢١١ .
(٤٩) آل عمران : ١٦٤ .
(٥٠) الجمعة : ٢ ، ٣ .
(٥١) الأنعام : ٥٠ .

قال « بودلى » فى انتشار الاسلام لذاتيته : « فما كان محمد يهمل أمر الله أبدا ، وما كان يسمح لمركزه أن يدير رأسه ، وسواء أقرأ الانسان لكتاب من مناصرى محمد ، أو لكتاب من أعدائه ، فانه ليجد أنهم جميعا قد اتفقوا على أن البساطة والوقار كانتا تعم حياته ، والبساطة المتناهية هى احدى قوى الاسلام الأساسية . وانها لاحدى أسباب انتشاره الملحوظ » .

ثم قال : « أكان فى مقدور رجل ـ ما لم يكن ملهما ـ ان يأتى الى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية ، وهلا تنعكس سخرية المعادين للاسلام عليهم ؟ وكيف يخلف دجال عقيدة ازدهرت ونمت بعد موته ؟ ان عدد معتنقى الاسلام ليزيد اليوم بمقدار ربع مليون فى كل عام . وهذا دون ضغط أو ارهاب لنشر رسالة الاسلام .

ولم يكن لمحمد « بوليس » : وكان جنوده هم ناشرو الاسلام الأصليون ، وقد تركوا الاسلام ثابت الدعائم حيثما ذهبوا . وان هذا ليجعل المرء يتساءل عما كان يحدث لو أنه كان هناك ارساليات عربية عظيمة تبشر بالقرآن كارساليات المسيحية الأولى . وما كان هناك دعاة عظام للاسلام بالمعنى المعروف ، فقد كان الناس الذين يتعاملون ـ وهذا الدين ـ يحبونه ، فكانوا يقبلونه ويدخلون فيه » .

ثم ينقض ما قاله فيقول :

« ومن الناحية الأخرى فان الاسلام لم يبق فى دولة تختلف عن مكان مولده كل الاختلاف ، فقد حكم المسلمون اسبانيا حكما رائعا خمسة قرون ، ولكن لما عاد الملوك المسيحيون وديوان التفتيش المقدس خبت عقيدة المسلمين وماتت .

وزيادة على ذلك فما كانت أوروبا لتعتنق الاسلام لو أن « شارل مارتل » قد هزم فى « تور » ، فان هذا الدين يوائم أناسا غير معقدين ، وكان محمد غير معقد »(٥٢) .

* * *

(٥٢) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم زكريا . ص ٥٢١ ـ ٥٣٢ .

● **بطلان مقال « بودلى » :**

الدليل على بطلانه : أن الاسلام الآن لا يزال فى مصر والسودان وشمال افريقيا وتركيا وأفغانستان وباكستان واندونيسيا والفبليبين وجاوة وسومطرا ·· وهى أماكن تختلف كل الاختلاف عن الجزيرة العربية مولد الاسلام ، وأما أن أوروبا تخلى كثير من بلادها عن الاسلام الآن شعوبها تجنح الى التعقيد ، فذلك غير صحيح · بدليل أن الاسلام لا يزال فى تركيا ، وقد كان يسود بلاد روسيا وكثيرا من المناطق الأوروبية بعد معركة « شارل مارتل » ، وبالرغم من محاكم التفتيش ، حتى ازداد التسلط الصليبى بأساليبه العلمية الجديدة بعد عصر النهضة · وكان اضطرار المسلمين الى ترك فرنسا والمناطق الشمالية بسبب شدة برودة الجو أبرز العوامل التى أدت الى بقاء أوروبا مسيحية استفادت من العلوم الاسلامية الطبيعية والكونية ، لأنها ضرورة للبقاء الجسدى وتوفير سعادته · أما الروح فمستوى رفيع لم تتهيأ أوروبا لتوفيره لنفسها من مأدبة القرآن فى سرادق الاسلام العظيم ·

* * *

سر الصراع بين الاسلام والكفار

قال الأستاذ « مونتمرى وات » عميد قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبره فى كتابه « الاسلام والجماعة المتحدة » : ان المعركة بين محمد ـ عليه السلام ـ وبين كفار قريش لم تكن معركة بين دعوة تجديد ودعوة محافظة على القديم ، بل كانت معركة بين حركة تجديد وحركة تجديد أخرى ولكن فى طريقين مختلفين بل متعارضين ·

كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة الى معيشة الحضارة التجارية ، وكانت ثروة الأرباح من تجارة القوافل تتدفق على زعماء العشائر القوية فى مكة وتتحول بهم من أخلاق فرسان البادية الى أخلاق السادة المنعمين فى الحاضرة · بينما أناس من عشائرهم وأتباعهم وعبيدهم يخدمونهم مضطرين ، ولا يشاركونهم فى نعيم الثروة ولا فى عزة السطوة ، فهم كسادتهم غير محافظين ، وغير مطمئنين الى ما هم فيه ، وإن كانوا يخافون التغيير المجهول ، ولا يسلمون زمامهم للمصلحين ،

فهم على غير ثقة بعاقبة هذا التغيير . فلم يكن السادة ولا العبيد اذن محافظين على القديم ـ كما زعموا لاقناع أنفسهم بمحاربة الدعوة المحمدية ، وفاءا منهم لآبائهم ، وأجدادهم ، ورعاية منهم لأربابهم ومعبوداتهم ، بل كانوا جميعا يتحولون من سنن أولئك الآباء والأجداد فى معيشتهم وأخلاقهم . ويأخذون فى معيشة جديدة شعارها الترف والمتعة ، وأملها الأكبر زيادة الثروة والسطوة ، وحقيقتها الواقعة هى حقيقة كل متعة حسية .

وهذه هى الحياة التى وصف القرآن أصحابها فقال : « **أفرأيت من اتخذ الهه هواه** »(٥٣) ، « **وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون** »(٥٤) .

« أما التغيير الذى جاءت به الدعوة المحمدية فقد افلح واستقر ، لأنه أعطى النفس الانسانيه ـ كما أعطى الجماعة كلها ـ حياة أفضل من حياتها ، وغاية أحق بالسعى اليها من غايتها(٥٥) هى الآخرة والوحدة الانسانية على قدم المساواة ، وعلى قاعدة عقيدة الوحدانية والايمان بالله والآخرة والكتاب .

● وجه الخطأ :

الكاتب فى هذا يخلط الحق بالباطل فما قاله عن رسول الله ﷺ حق وما قاله عن كفار قريش وأنهم كانوا بصدد تغيير للحياة الاجتماعية وليس جمودا على ما عليه الآباء باطل ، لأن الله حكى عنهم قولهم « **انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون** »(٥٦) وجعل القرآن ما قالوه آفة اجتماعية من شأنها تعويق التطور الاجتماعى وقرر أن وجود الطبقات المترفة آفة مصاحبة ومساندة لآفة الجمود فقال « **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون** »(٥٧) ، ولو كان لدى القرشيين رغبة فى التغيير الاجتماعى

---

(٥٣) الجاثية : ٢٣ .   (٥٤) الجاثية : ٢٤ .
(٥٥) المرجع السابق ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣ .
(٥٦) الزخرف : ٢٢ .   (٥٧) الزخرف : ٢٣ .

حينئذ لكانت هذه الرغبة وحدها كفيلة بتقبل فتح باب الحوار فى المبادىء التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكان هناك جدل موضوعى ٠٠ ولكن القرآن يقول ـ فى رفضهم مبدأ التغيير من أساسه وبالكلية ـ **« قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون »**(٥٨) ٠

وفى مرة أخرى يقول القرآن عنهم **« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »**(٥٩) ٠ ومرة أخرى ينفى عنهم العلم الذى هو أساس أى اتجاه للتغيير الاجتماعى ، ويذكر النقيض للعلم وهو الجمود على الجهل فيقول فى سورة لقمان : **« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ٠ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير »**(٦٠) ٠

ولكن المستشرقين دائما يحاولون من تحت ظلال راية الدفاع عن الحق والاسلام والرسول وأمانة البحث العلمى أن يعملوا على نقض المسلمات الاسلامية والقضايا القرآنية للتشكيك فى قيمتها لدى الدارسين اذا لم يصلوا بالقارىء الى حد تجنيده لحربها كفرا بها ٠

أما أن الكفار كانوا يعبدون « اله الهوى » فليس هذا دليل التجديد ٠ بل الهوى هو الذى بعث كافة النبيين لحربه ٠

* * *

تصوير النبى بطلا ومصلحا عظيما

يحرص المستشرقون وتلامذتهم على تصوير النبى بطلا أو مصلحا عظيما ٠ أو سياسيا بليغا أريبا أو عبقريا فذا ، هو وبعض أصحابه ، فمثلا «توماس كارليل» الانجليزى فى كتابه «الأبطال وعبادة البطولة» الذى ترجمه محمد السباعى يعده واحدا منهم فيمجده ثم يذكر « شكسبير » فيقول : ان المقارنة بين شكسبير ومحمد لتعتبر غير ذات موضوع لأن بطولة شكسبير

---

(٥٨) الزخرف : ٢٤ ٠ (٥٩) البقرة : ١٧٠ ٠
(٦٠) لقمان : ٢٠ ، ٢١ ٠

فى أعلى عليين ، بينما يقول عن العرب وتأثير الرسول فيهم « قـــــوم يضربون فى الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم « محمد » النبى العربى أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والعرفان ، وكثروا بعد قلة وعزوا بعد ذلة ، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم » .

وسقوط مقال « كارليل » فى تفضيل شكسبير واضح ، فالنـــاس يمتازون بآثارهم النافعة من بعدهم .

وانما يحرص المستشرقون على تصوير النبى بصورة البطل أو المصلح أو البليغ ، لأن كل هؤلاء تنتهى معهم كل أفكارهم ، وليسوا جديرين بالخلود والاستمساك بمذاهبهم كما يستمسك الناس برسالات الأنبياء ـ ذلك .. وان كل نور يومض فى أية أمة ولو كان ضئيلا ، وكل اثارة من صلاح أو كرم خلق أو صفاء سريره وطهارة قلب فان ـ مما لا ريب فيه ـ مرده فى الأصل الى رسالات الله . أى الى هداية النبيين عليهم السلام ، ولذا فمن الخسارة للانسانية ان يقف انسان ذو اثارة من علم يصرف الناس عن أى نبى من الأنبياء ، أو يحجب صفحات فضائله عن العالمين لأنه بذلك يطفىء سراجا منيرا يهدى البشرية الى أرشد أمرها .

ومن أجل هذه الحقيقة فان القرآن حرص على تجلية سير الأنبياء السابقين ، وروت لنا السنة ودعاة الاسلام الكثير من آثارهم عليهم الصلوات والتسليمات ، ومن الخطأ الضار بالبشرية محاولات حجب حقيقة السيرة النبوية الهادية عن البشرية . فضلا عن تشويهها .

***

حول السور المكية والمدنية

● نقض مطاعن فى القرآن الكريم :

وقد كتب الشيخ محمد عرفة وكيل كلية الشريعة بالأزهر كتابا بهذا العنـــوان تعرض فيه لمفتريات المستشرقين فى هـــذا الباب ، وبخاصـــة « طه حسين » ربيب المستشرقين الناقل عنهم ، ومن الأمثلة التى أوردها

الشيخ نقلا عن طـه حسين وأجاب عنها : قول طـه حسين : ان السور المكية فيها تقطيع للفكرة واقتضاب للمعانى ٠

وهذا مطعن فى تمام البيان القرآنى ، ربما لم يرده « طه حسين » وقد نبه الى سم هذه الفكرة الشيخ محمد عرفة فرد عليها قائلا : ان سورة الأنعام مكية ٠ وهى (١٦٥ آية) انتظمها غرض واحد هو ابطال الشرك ٠ فكيف يقال : ان القرآن المكى فيه اقتضاب للمعانى وتقطيع للفكرة ؟!!

وتناول الشيخ محمد حلاوة المرصفى مطاعن هاشم العربى فى كتاب « التذييل » وذلك فى الكتاب القيم « ثبات الايمان ونصرة القرآن » ٠ وكان هاشم العربى ذكر اعتراضات ادعى أنها مخالفة للقواعد العربية وقد بلغت ٢٨ شبهة أجاب عنها المفسرون السابقون فجمعها المنتصر المدعو هاشم العربى ، وتعقبه الشيخ محمد حلاوة بالرد فى كتابه (من ص ٢٧ الى آخر الكتاب) ٠ كما تعقبه الشيخ محمد حلاوة فى دعواه وجود تناقض بين آيات القرآن (ص ١٢٩ وما بعدها) ، وفى دعواه أن فى القرآن لغوا (ص ١٤٩ من ثبات الايمان) ـ أو أن فى القرآن أخطاء تاريخية (ثبات الايمان ص ١٤٣) ـ كمـا رد على دعوى عدم اعجاز القرآن (ص ١٥١) فمن أراد الرجوع الى هذه المباحث فليرجع اليها هناك ، فليس هذا الكتاب خاصا بذلك ، وإنما أردنا التنبيه الى وسيلة من وسائل الغمز فى صاحب السيرة العطرة محمد ﷺ ، وحسبنا من ذلك بعض الأمثلة وسيأتى بعض هذا ان شاء الله ٠

* * *

● أبرز كتب المستشرقين والردود عليها :

أبرز كتب المستشرقين والمبشرين فى مهاجمة الاسلام :

١ ـ ميزان الحق : للدكتور « فاندر » المستشرق الأمريكى والدكتور « سنكليرتسدل » ٠

٢ ـ كتاب الهداية فى أربعة اجزاء وهو تفنيد للاسلام وطعن سافر فى القرآن الكريم ٠

٣ ـ كتاب مقالة فى الاسلام للدكتور المستشرق « سال » .

٤ ـ تذييل مقال فى الاسلام : لمرتد أصبح قسيسا تسمى هاشم العربى وهو تذييل على مقالة « سال » .

٥ ـ مصادر الاسلام : للدكتور « سنكليرتسدل » . وفيه اضافات الى أباطيل هاشم .

وجميعها تهاجم الاسلام والرسول .

وأهم الكتب التى ردت على المستشرقين :

١ ـ اظهار الحق : للشيخ خليل رحمة الله الهندى وهى مقالات القيت فى ندوة مع أقطاب المبشرين والمستشرقين واضطروا الى الانسحاب حتى يحتفظوا بأباطيلهم الباقية فلا يكشف الشيخ زيفها .

٢ ـ السيف الحميدى الصقيل : وهو رد على كتاب الهداية السابق ذكره .

٣ ـ أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق : للشيخ عبد الرحمن الجزيرى .

٤ ـ ثبات الايمان ونصرة القرآن فى الرد على هاشم العربى : للشيخ محمد حلاوة المرصفى .

٥ ـ كتابنا هذا فى الرد على « م. سفارى » وغيره ممن تناولوا السيرة النبوية .

٦و٧ ـ المستشرقون والاسلام لكل من زكريا هاشم زكريا وحسين الهراوى .. ثم ردود كثيرة متفرقة فى كتب أو مقالات .

* * *

الفصل السابع

الرد على «سيديو»، «لامانس» وآخرين ..

- مزاعم سيديو : فى القصاص وشدته .
- مفتريات لامانس .
- الرد على مستر كاش ـ والقتل السياسى .
- شبهات كارليل ـ سر التكرير فى القرآن .
- شبهات المستر فرانك فوستر : أمية الرسول ـ وتعدد زوجات الرسول ـ ومقابلة أهل الكتاب .
- محمد خاتم المرسلين ـ الرد على المنكرين .
- خاتمة .

الرد على سـيديو

● لمـاذا القصاص لا التسليم المسيحى ؟

تحدث « سيديو » عن الاسلام ونصيب الأخلاق فى تعاليمه ، فذكر دعـوة النبى للأخـلاق « **وانك لعلى خلق عظيم** »(١) ، « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (**حديث**) .

ثم قال : « بيد أنك لا تجد فى القرآن ـ ما فى الانجيل ـ من التسليم الذى يفيد كثيرا عند الشدائد ، فترى محمدا يأذن ـ بين كثير من التناقضات ـ فى مقابلة السيئة بالسيئة ، كأن الناس لم يكونوا مستعدين لهذا من قبل . و « محمد » حين يقول بمبدأ القصاص الذى رضى عنه اليهود ـ مع ذلك ـ يكون قدساير احكام زمانه وقومه » .

● القصاص لا يتنافى مع الخلق :

يعنى سيديو بما فى الانجيل من التسليم قوله « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ونحن لا نسلم لـ « سيديو » قوله : « ان هذا يفيد عند الشدائد » . انه يفيد طبقـة المستبدين المتسلطين ، وهـذا هو ما جعل الشيوعيين يصفون دين المسيحية بأنه مخدر للشعوب .. وهذا امر يضمن مؤقتا سكوت المظلوم الضعيف ، ولكنه عندما يجد الفرصة للثأر والانتقام اهتبلها ليثأر بطريق العنف المستعلن ، أو بطريق الاختلاس أو التآمر المتوارى . والنار المستعلنة يحذر الناس شرها فى استعلانها . أما اذا كانت متوارية تحت الرماد والناس عنهـا غافلون ، فقد تكون آثارها وخيمة ، تدمر كل شىء أتت عليه فى غفلة عن أمرها .

فالرغبة فى القصاص واقامة العدل فطرة ، ومطالبة الناس بما يخالف الفطرة ـ دون بديل قائم على الرغبة فى المخالفة . مطالبة بالمستحيل .

ومكلف الأيام ضـد طباعها   متطلب فى المـاء جذوة نار

---

(١) القلم : ٤

وقد جاء القرآن بما يحفظ للمرء كرامته دون أن يجنى على العدالة ٠ فشرع القصاص ولكنه ترك للنفس المتسامية ـ أو القادرة على التسامى ـ الباب مفتوحا لترتفع عن أخذ حقها فتعفو عن المسىء ، ولم يجهل القرآن الفوارق الفردية بين الناس واختلاف الطبائع ، فجاء بشريعة تحمى العدل ، وتنمى الفضائل الخلقية ، وتعين على السمو الروحى ، **« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »**(٢) ، وذلك هو القانون العام ، ثم أعقبه بالمثل الأعلى فى خطابه للرسول **« واصبر وما صبرك الا بالله »**(٣) ، وهو ليس أمرا خاصا بالنبى ، ولكنه عليه السلام الأسوة **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »**(٤) ٠

فليس هناك تناقض كما زعم سيديو فى نصوص القرآن وافعال الرسول ٠ انما التناقض يكون فى الدعوة الى أمرين معا ٠ اما هنا فالدعوة الى مبدأ واحد متكامل الأجزاء ٠ وهو التسامى بدرجته الاولى عن الشراهة فى الحصول على حق القصاص ، والتسامى بدرجته الثانية بالعفو وهو الأمثل :

(أ) « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »(٥) ٠

(ب) « فمن تصدق به فهو كفارة له »(٥) ٠

وليس التصدق الزاما واجبارا ، وانما يأتى طوعا واختيارا ٠٠ هذا فضلا عن أن الرسول كان مثلا عاليا فى الحلم ، ولكنه لا يضع الندى موضع السيف ليفسد الحياة ، فالعفو والعقوبة كلاهما عمل استصلاحى فى أيدى الحكماء ٠٠ وقد جعلتهما شريعة الاسلام حقا فى يد المسلم ليفعل الأمثل منهما ٠

وأما أن محمدا فى تشريع القصاص ساير أحكام زمانه وقومه فمغالطة فاحشة أراد بها سيديو الايحاء بأن شريعة الاسلام امتصاص نظام قائم ، وبلورة له ٠

---

(٢) النحل : ١٢٦
(٣) النحل : ١٢٧
(٤) الأحزاب : ٢١
(٥) المائدة : ٤٥

وقد كرر هذا المعنى غيره من المستشرقين فى صورة أخرى فى اطار مدح وثناء فقد قال جونسون فى كتابه « الديانات الشرقية » :

« ان التجاوب الطبيعى بين نظرة محمد الواسعة الى الذات الالهية، وبين الجو الفسيح الذى كان يغدو ويروح فيه ٠٠ هو التفسير الوحيد للهدوء ورباطة الجأش العجيبين اللذين استقبل بهما المشاهد الهائلة التى رآها ٠

وليس بمستغرب أن تخرج أعظم قوة فى ذلك العصر من فلوات الجزيرة العربية التى كانت الأمم حولها فى مد وجزر ٠ فقد كانت الصحراء على الدوام هى المكان الذى انبعثت فيه صيحات الأنبياء الذين جاءوا من عند الله ، وقد أضفى المسيح على الجزيرة العربية معنى رمزيا حين اوى الى البرية لما جاءه ربه الذى ليس كمثله شىء ، ولكن محمدا جعل هذا الرمز حقيقيا ، فقد كانت الجريرة العربية نفسها هى رجل الساعة ، وكان نبى الاسلام كلمتها الجامعة ، اذ أفضت الصحراء بذات صدرها الى ابنها الفذ الذى تحلى بتقاليدها الرفيعة ، ودفعه واقع باطنى قاهر الى الخلوة فى ليلة طلعت فيها النجوم وهى تصغى الى حديثها دون أن ينبس ببنت شفة »(٦) ٠

فالجميع يحاولون رد شريعة الاسلام الى البيئة والجزيرة والدوافع الاجتماعية وغيرها ، وهذا منطق منكرى الأديان ومنطق المبشرين والمستشرقين الذين يريدون النيل من الاسلام خاصة بنزع ثوب قداسة الوحى عنه ٠ وجعل القرآن بشرى المولد والطبيعة ٠ وقد رددنا على هذا فى مكان آخر ٠ ولكن الذى نريد دفعه الآن هو دعوى مسايرة القرآن لعصره ولرغبة اليهود ٠ فلقد ساير القرآن الصالح العام فى عصره وغير عصره ، دون التفات الى رضا المجتمع والزمان ٠ فلقد جاء قوم يطلبون من النبى ﷺ أن يحط عنهم بعض أحكام الشريعة كالزنا طلب اسقاطه قوم ، وقطع يد السارق طلب قوم اسقاطه عن فاطمة المخزومية ، والرجم طلب اليهود أن يستبدل به تحميم وجه الزانى والتشهير ، وقامت حروب الردة من أجل الحفاظ على الشريعة بكل مبادئها ٠٠ فكيف يقال : ومع ذلك يكون محمد

---

(٦) محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل ص ٥١

قد ساير أحكام زمانه وقومه ؟ ! • هذا جهل فاضح بالتاريخ ، او تجاهل مزر بالحقيقة الجلية •

وأما قول جونسون • فمقطوعة فنية من الخيال ، وفى عالم المنطق استدلال شاعرى أو خطابى لا يصح دليلا للحقيقة •• فلو كان الموضوع موضوع صحراء لكانت الصحراء الكبرى بأفريقيا أو صحراء كاليفورنيا مصدرا لأنبياء ومرسلين •• ولو كان الأمر بلورة مبادىء وتقاليد رفيعة للصحراء لكان الحكم فى رفعة هذه التقاليد الى الصحراء • بما فيها من غارات واباحية وهرب من المشكلات المعقدة بالخمور •• ولم يكن بمحمد من هذه الصفات الصحراوية شىء •

* * *

مفتريات لامانس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧)

● من هـو لامانس ؟

هنرى لامانس قس يقطن لبنان . بلجيكى المولد فرنسى الجنسية . من أوائل علمـاء الجامعة اليسوعية ببيروت ، وقد درس اللاهوت فى انجلترا وتولى ادارة التبشير فى بيروت ، وله عدة مؤلفات فى تاريخ العرب والسيرة والاسلام . ووظيفته المعيشية تجعلنا نصم الآذان عن كلماته ، ولكننا نذكر بعض آرائه الشاذة لنعرف كيف يتجه أولئك المستشرقون .

١ ـ نفى شجاعة النبى والعرب :

نفى الشجاعة عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام وعن العرب عامة . ولا شك انه تصدى لانكار ضوء الشمس وقديما قال الشاعر :

❋ لا ينكر الشمس الا من به رمد ❋

وأى شـجاعة أعظم من ان يتحـدى النبى كل القوى التى تحمى الوثنيات والأنظمة الاجتماعية الفاسدة فى العالم ؟ لقد كان يقود المعارك ويديرها ويتقدم الصفوف ، ويتصدى لمـا يتصدى له كل صنديد شجاع . وحسبنا قول على بن أبى طالب : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ . فما يكون أحد أقرب الى العدو منه » .

« وقد ثبت فى موقعة حنين ثبات البطل الغلاب ، ولم يثنه أن رأى أكثر من معه يلوزون بالفرار من مباغتة الأعداء المتربصين لهم فى ظلمات تنيل بالمضايق والشعاب . نعم فى ذلك المـأزق المبيد ذعر المسلمون وتفرقوا يطلبون النجاة . لكن النبى ثبت فى مكانه ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وهو يقول : « أيها الناس تعالوا الى . أنا رسول الله . أنا محمد ابن عبد الله » . لكن صيحته هذه كانت لا تسمع فى ضجة الفرار وجلبة الاضطراب . فأمر عمه العباس أن يستصرخهم فاجتمع اليه مائة، استبسلوا وقاتلوا مع رسول الله حتى تم له النصر(٧) وموقفه يوم أحد اذ صاح قائلا والهول من حوله والعدو يطلبه :

---

(٧) البطـولة والأبطـال لأحمـد الحوفى ص ٣٢ ، ٣٣ ط . نهضـة مصر .

أنا النبـــى لا كـــذب   أنا ابن عبـــد المطلب

وأما شجاعة العرب فحسبنا دليلا على أنها طبيعة فيهم هذه الفتوح الاسلامية التى خرت عروش الروم والفرس والحبش أمامها مستسلمة . وفى الجاهلية ما تنسى الفرس يوم ذى قار ، ولا نسى الفرس والروم معا انهم أقاموا من دولتى غسان والحيرة العربيتين متاريس حين عجزوا عن لقاء العرب اذ آمنوا انه لا يفل الحديد الا الحديد . ولكن « لامانس » اراد تحقير شأن العرب اغراء للكلاب بهم . أو كتعبير الانجيل : للخراف الضالة .

***

٢ ـ هل كان النبى أكولا ؟

ووصف النبى بأنه اكول .. وذلك خلاف الواقع ، لأمور :

أولاها : أن النبى ﷺ ذم الذين يأكلون أكثر مما يكفيهم . ولامانس يريد أن يصور النبى فى صورة الدجالين الذين يقولون ما لا يفعلون . وكأنه يصور حاله الشخصية لا حال النبى . فان عائشة رضى الله عنها قد صح عنها أنها قالت : « كان يأتى الهلال تلو الهلال تلو الهـــلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين . ما يوقد فى بيت رسول الله نار » . وسئلت : ماذا كان عامة طعامه ﷺ هو وأهل بيته ؟ فقـــالت : الأســودان . . التمر والمـــاء .. ومن كان هـــذا شأنه فليس أكولا . وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام وهو المتواتر نبأ صدقه : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع » ، وانما ابتغى الكاتب بقالته هـــذه أن يشكك فيما جاء به النبى ، بشريعة الاسلام ، عن الجوع او الاعتدال فى الطعام والشراب وفضيلة ذلك ، وليشكك فى الصيام الذى دعا اليه ، وعمل به فقد أثر عنه أنه كان كثير الصيام . فيصوم فوق رمضان ستا من شوال والثلاثة الأيام البيض من كل شهر (١٣ ، ١٤ ، ١٥ من الشهر العربى) وأيام الاثنين وكثيرا ما صام الجمعة ، وأخبرتنا عائشة أنه كان ربما أتى اليها ضحوة فسألها : هل عندك من طعام ؟ فان قالت له : لا ، قال : اذن نصوم . وقد أثر عنه : « جوعوا تصحوا » ، كما أثر عنه « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » . وقد أجمع المؤرخون

والمخالطون له عليه الصلاة والسلام على أنه كان المثال الكامل لما يدعو اليه :
والعجب أن المستشرق « بنيه سنغله » يرى نقيض قول لامانس ، فيزعم أن النبى مات نتيجة كثرة صيامه وجوعه ، لا التخمة ولا الالتهاب الرئوى الذى زعمه المستشرق كليمان هيار .

* * *

٣ ـ هل كان النبى يكره الوحدة ؟

وزعم أنه عليه الصلاة والسلام كان يكره الوحدة التى هى قوام رهبنته المفضلة .

ويتناسى « لامانس » المتفق عليه من أنه عليه الصلاة والسلام كان فى مكتمل شبابه قبل البعثة يخلو الى نفسه فى غار حراء وحيدا .. ويتجاهل ما روى من اعتكافه فى المسجد كثيرا ، وأن طبيعة دينه الذى يدعو الى التفكير فى خلق السموات والأرض ، ومصالح المسلمين تفرض لتحقيقها توفير وقت يخلو فيه المرء الى نفسه ، وأنه من أجل الاستجمام الروحى والعقلى والوجدانى الذى لا يتم مع ضجيج المخالطة نزلت الآية التى توفر له ذلك **« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق »**(٨) والذى يكره الوحدة لا تؤذيه هذه المخالطات المستمرة . ومن أجل توفير وقت يخلو فيه الى نفسه ومن أجل تخفيف زحمة اللقاءات به ربما كان نزول الآية **« اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة »**(٩) لتكبح جماح سيل الزوار والخلطاء .

* * *

٤ ـ هل كان النبى نؤوما ؟

ويصف لامانس النبى بأنه كان نؤوما . ليوهم أنه كان على غير ما نزل الله عليه **«ومن الليل فتجهد به نافلة لك»**(١٠) ، **« يا أيها المزمل . قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن**

---

(٨) الأحزاب : ٥٣ (٩) المجادلة : ١٢ (١٠) الاسراء : ٧٩

ترتيلا »(١١) • ومن المعلوم أنه كان يقوم الليل ويقوم أصحابه معه بقيامه حتى أحس أنهم يفعلون فعله هذا فصرفهم وقال : « خشيت أن يفرض عليكم ذلك » •• وقد سجل القرآن هذا النمط من العبادة الليلية فقال : « **ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** »(١٢) ، وتلقى عصره هذا الخبر بالتسليم فلم ينكره أحد •• والدعوات الشابة تكون تحت المجهر دائما • فأى بيان كاذب يبرز فى صورة شنعاء فى صفوف المعجبين والحاقدين على سواء •

بل ان هذه الصفة تتنافى مع طبيعة هذا الدين الذى يجعل من قيام الليل شريعة لازمة لبناء الداعى الى الله والسالك الجاد على جادة الجنة •• وهى أبرز سمات التقى « **ان المتقين فى جنات وعيون • آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين • كانوا قليلا من الليل ما يهجعون • وبالأسحار هم يستغفرون** »(١٣) ، « **انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون • تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون** »(١٤) • فكيف يكون هذا طابع المؤمن التقى من أهل الجنة ولا يكون النبى الرائد كذلك ؟ لقد وصفت عائشة وهى أقرب الخلطاء منه حياته عليه الصلاة والسلام وأخلاقه فقالت فيما يرويه البخارى : « كان خلقه القرآن » ولا يمكن أن ندع صفة القرآن للنبى لمفتريات خصم ليس له على زوره بينة • بل ان منطق الحياة يصفع زوره ، اذ لا يتصور معه رجل كرسول الله يحيا فى محيط خصومات عاتية من الفرس والروم ومشركى العرب ثم يدع دفة سفينته بين الموج اللجى لينام • وهل ينام انسان فى الغابة ، أو فى بحر يقصف بشراع سفينته الرياح ؟ •• ان عوام الناس يدركون من بدهيات الحياة أن الجائع والخائف لا ينامان • وكان رسول الله ﷺ فى معظم أحواله جائعا • وفى مقام الخوف الذى انقذه من هوله المذهل ايمانه وشجاعته •• ان الرجل المشغول بجسام الأمور يبيت وهذه

---

(١١) المزمل : ١ — ٤

(١٢) المزمل : ٢٠

(١٣) الذاريات : ١٥ — ١٨

(١٤) السجدة : ١٥ ، ١٦

الأمور تلاحقه فى نومه .. فكيف الأمر ورسول الله يؤسس مجتمعا جديدا لبناء شامخ يضم البشرية كلها ؟ ان صح لنا أن نحلل تحليلا نفسيا الرجل من كلماته فاننا نقول : ان رسول الله ﷺ كان مشغولا بدعوته الى الحد الذى لا يهنأ له معه نوم . بل تلاحقه متاعب رسالته فى نومه . وذلك هو ما توحى به عبارته المعروفة « تنام عينى ولا ينام قلبى » .

وأن أردنا تحليله النفسى من تصرفاته لقلنا : ان الرجل النؤوم يغط فى نومه لا يأبه بشىء حوله . أما غيره فيهب من نومه لأقل نبأة(١٥) وينهض فى نشاط من فراشه ، وقد ثبت أنه كان اذا سمع صريخ بالمدينة ، وهب القوم لاغاثة الصريخ . وجدوا رسول الله قد سبقهم لانقاذه ، وآب بعد أن أدركه فردهم من الطريق . لقد نهض لأول همسة صياح نشيطا . فأدركه على فرس أبى طليحة ثم رجع .. ولما يصل القوم مكان الصريخ(١٦) . وما لهذا دلالة نفسية الا أن الرسول بلغة المصريين كان « نومه خفيفا » وقليلا .. والا فمتى كان النبى يصرف أمور « دين ودولة » ولما تستكمل الدولة قوانينها ولا الدين شرائعه .. اذا كان نؤوما .. ؟

***

٥ ـ انتقاص أعلام الاسلام وأمهات المؤمنين :

وينتقص لامانس أعلام الاسلام كالخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين ليرى القارىء فشل الاسلام فى التربية . بينما يذكر المرتدين والمنافقين فى صورة أحرار عمالقة وطنيين حتى انه ليبدو « ناصبيا » حين ينتصر لبنى أمية ضد الشيعة الى الحد الذى أثار عليه المسيو « كازانوفا » وحمله على التطرف المناقض فى كتابه « محمد وانتهاء العالم » الذى ناصر فيه الشيعة وهاجم الأمويين ، وكلاهما منحرف فى تعصبه . وسبق بيان الحق فى هذا عند تحدثنا عن تزوير الحقائق التاريخية .

***

---

(١٥) الصوت الخفى . أو صوت الكلاب .
(١٦) رواه أنس : المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

٦ ـ مهاجمة التوحيد فى القرآن :

ويهاجم لامانس التوحيد فى القرآن الذى يجحد التثليث فيقول : « **ولا تقولوا ثلاثة** »(١٧) والقرآن فى دعوته الى التوحيد منطقى ، قال الله سبحانه « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** »(١٨) . ثم قطع الحجة وشبهتها على المتشككين فى الوحدانية فقال : « **أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم** »(١٩) .

ولماذا يكون مع الله ثان وثالث . التكون هذه الآلهة مخلصة للانسان من خطيئته كما يقول النصارى والوثنيون من قبلهم فى العالم ؟ ولماذا لا يكون هنالك الدين الذى يرشد الناس الى الصواب ويقيم النظم والتعاليم التى يصان بها المرء عن الخطيئة ، أو يتطهر منها ان التاث بها ؟ . ان هذا هو ما جاء به محمد ﷺ وكما قال احد النصارى الذين أسلموا :

« ولما كان كل كائن يستطيع الوصول الى الكمال اذا التزم السير على نهج خاص . كذلك الانسان يستطيع فى هذه الحياة أن يبلغ غاية الكمال الروحانى كما بلغ غاية الكمال الجسمانى اذا سار على هذا النهج . وما هذا النهج سوى الدين ، وانى أعتقد أن العالم الآن قد أصبح أرجح رأيا من أن يسلم بأن نظرية الاله الغضبان ، واسترضاءه بتقديم القرابين تصلح أساسا للدين . وسببا لوجوده . لقد شبع الناس من كباش الفداء هذه . وانما الرأى الذى تقبله العقول أن يكون ارتقاء الانسان من الحيوانية الى الروحانية هو الغرض الوحيد الذى ترمى اليه الأديان . والمبدأ الأسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء .

« ولا ريب أن بلوغ هذه الغاية السامية لا يمكن أن يتم بسحر ساحر ، بل لا بد من المجاهدة والمكابدة تحت ارشاد القدوة الكامل الذى يحيط بدقائق النفس الانسانية . وما يحيط بها الا رسول من الله حقا ، ولست أستطيع أن أفهم غرضا آخر يبعث الله الرسل من أجله .. ومحمد معلم الانسانية الكامل جاء بما يرفع الانسانية من درك الحيوانية الى مرتبة

---

(١٧) النساء : ١٧١ (١٨) الأنبياء : ٢٢
(١٩) الأنبياء : ٢٤

الروحانية ، وأرشدهم الى الوسائل المؤدية الى اعلاء الميول النفسية الأساسية كالغضب والشهوة وما اليها ، الى الأخلاق الربانية . الحق أن محمدا ﷺ يعالج هذه المسألة من كافة وجوهها ، ويعالج كافة الميول النفسية سواء منها ما كان محمودا ، وما كان مذموما . ويرشدنا الى الخير لنفعله ، وينهانا عن القبيح لنتجنبه . الأمر الذى لا مثيل له فى أى دين من الأديان(٢٠) .

« لا يقف بنا محمد ﷺ عند هذا الحد بل يضع أمامنا النموذج الذى يراد أن نطبع أنفسنا على غراره . ولقد أتى على الانسان حين من الدهر كان يعتقد أن القول بأن الله « خلق آدم على صورته » أشبه باللغز المعمى ، ولكن النبى ﷺ وضح هذه العبارة حين أمر أمته أن يتخلقوا بأخلاق الله ، وبذلك لخص الغرض الأكبر من هذه الحياة الدنيا . فالانسان قد خلق على صورة الله من حيث الروح ، وبقى عليه أن يأخذ من أوصافه تعالى ما يناسبه . وهذا يتطلب معرفة الله تعالى بالقدر الذى يستطيع العقل المحدود أن يدركه من غير المحدود .. والقرآن يصرح بأن الله تعالى «**لا تدركه الأبصار**» ، ولكنه يذكر بعض الصفات الالهية التى يمكن أن يدركها العقل البشرى والتى تصلح أن تكون لنا مثالا نحتذيه فنطبع أخلاقنا على غراره ، فيحدثنا عن تسعة وتسعين اسما فقط من الأسماء الالهية ... تتضمن بعض الأوصاف التى يستطيع المتخلق بها أن يكون ربانيا .

« ومن ذلك يتبين أن النبى ﷺ قد عرف الخلق بالحق على قدر ما تطيقه عقولهم ، وهذه المعرفة قوامها الاستدلال بآيات الكون ، وادراك الصفات الجميلة التى يمكن أن يتصف بها البشر . وقد كان اله اليهود الها قاسيا لا يحب العفو ، ولا يعرف الشفقة فى تنفيذ أحكامه ، ولا تأخذه رأفة بأعداء شعبه . ولم تكن آلهة الأمم الأخرى أقل من اله اليهود قسوة ، فقد كان دخان القرابين على النار ، ودماء البهائم على المذابح تملأ

---

(٢٠) المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

خياشيمهم فتتلمظ لها شفاههم ، وتقر بها عيونهم ، وكان جميع الآلهة فى الشرق والغرب من هــذا الطراز ٠

« ولا ريب أن عيسى عليه السلام جاء ليخفف من حدة القسوة التى كان الناس ينسـبونها الى مقام الألوهية ، فكان يسـمى الله اباه ، ليشعرهم بأن العلاقة بين الله وعباده تشبه علاقة الوالد بولده ، ولكن هذه الفكرة الجميلة أفسدها رجال الكنيسة ، فجعلوا الأب الودود أبا غاضبا حانقا لا يعفو عمن أساء اليه ، ولا يفترق فى شيء عن اله اليهود الذى لا يرحم ولا يلين ٠ وأضفى النصارى على « الأب » فى السماء صفات المألوهـات الوثنية ، فشبهوه بـ « زيوس » الذى كان يرسل أبناءه لتسفك دماؤهم تكفيرا عن خطايا غيرهم ٠

« هـذه الفكرة لم تشوه جمال الرسالة التى جاء بها عيسى فحسب ، بل أعطت صورة شائنة عن الأبوة ٠ أب لا يعفو عمن أساء اليه ، ولكن يقتل أفضل أبنائه ليخلص غيره من أبنائه الأشرار ٠

« أما محمد ﷺ فيعطينا صورة عن الألوهية تفوق كل ما تقدمها جلالا وجمالا ٠ فاله محمد هو الله « **رب العالمين ٠ الرحمن الرحيم ٠ مالك يوم الدين** »(٢١) ٠ وفى هـذه الصفات الأربع تتلخص سائر الصفات المذكورة فى القرآن »(٢٢) ٠

* * *

● **الغرض من التوحيـد :**

« يقرر محمد ﷺ التوحيد بقصد اصلاح الناس وتهذيب نفوسهم ٠ فالانسان هو خليفة الله فى أرضه ، ونائبه الأعظم لتحقيق الغاية العظمى من الوجود ، ولـما كانت هذه الغاية لا تتحقق الا على نهج خاص هو الذى تدل عليه الأسماء والصفات الالهية وجب ان تكون أفعال الانسان وصفاته على مثال الصفات الالهية حتى تتحقق الغاية المنشودة على الوجه

---

(٢١) الفاتحة : ٢ ـ ٤ ٠
(٢٢) المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ٠

الأكمل . وبهذا المعنى يجب أن نموت ونحيا على التوحيد . وهذا هو المراد بصبغة الله المذكورة فى القرآن . فيجب أن نستعمل عقولنا فى تدبير عالمنا الأصغر ـ وهو الجسم البشرى ـ كما يدبر الله (العقل الأعظم)(٢٣) العالم الأكبر ، اذ نحن متعاونون مع المدبر الأعظم بوسائلنا المتواضعة ، وبناء عليه يجب أن نسير معه .

وبذلك يضاعف النبى الكريم من اهتمامنا بالدين . فليس القصد من الدين هو حسن المآل بعد الموت أو الدخول فى جنة الفردوس . بل القصد منه هو أن نعمل فى كل لحظة من لحظات حياتنا على تحقيق الغاية الالهية . التى هى فى الحقيقة غايتنا . وهذه النظرة الجديدة الى الدين غيرت معنى العبادة تغييرا كليا . فلم تصبح العبادة مقصورة على انشاد الترانيم والصلوات . اذ أن هذه وسيلة الى غاية . بل صارت تشمل العمل على اخراج المواهب والقوى الكامنة فى الانسان وفى الوجود من حيز القوة الى حيز الفعل . وقد تجلى هذا المعنى فى أول ما أمرنا الله به فى قوله « **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** »(٢٤) .

* * *

٧ ـ سر الاعجاب بمحمد :

قال لامانس فى كتابه « مهد الاسلام » : « كان محمد رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوى الذى كان يرى فى شخص محمد النبى العربى ـ كما يدعوه القرآن ـ وفى هذا التفاعل ، أو فى هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته نجد أولا وقبل كل شىء السر فى هذا السلطان الضخم الذى كان لمحمد على مواطنيه » .

---

(٢٣) كلمة العقل الأعظم عبارة المستشرق غير سائغة شرعا .
(٢٤) أندادا : شركاء ـ والمفرد ند ـ والآية من سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢

ما أتفه هـذا الرأى . لقد كانت الجزيرة العربية تعج بآلاف مثل النبى يمثلون شخصية العربى ويحملون سماته فلماذا لم يكن لكل هؤلاء من تقديس العربى ما كان لمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ وأى مطابقة تامة هـذه التى يزعمها لامانس بين النبى وبيئته ، لقد كان على النقيض فى كثير من الأحيان مع البيئة فهو لا يسجد لأصنامها ولا يشرب الخمر ولا يفخر بمال ولا حسب ، وقد استهجن « ستوك هرفونجه » أسلوب التهجم الصارخ على الحقيقة فقال فيما يرويه الأستاذ زكريا هاشم : ان سيرة « محمد » الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق . هـذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلوا الى نتائج ـ ولا شك ـ خاطئة ، فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين . ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر ـ لا ريب ـ مستحيل .

على أن دراسـة المبتدعات التى دخلت عن هذا الطريق فى تاريخ النبى قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت أحيانا وليدة كراهية شديدة للاسلام (كما هو الشـأن فى كل ما كتب القسـيس لامانس أو القس زويمر) . اذ يصعب التوفيق بينها وبين العلم . ولا تليق بعصرنا هذا . كما أنها على العموم . مع ما فيها من احاطة ـ نظرية بحتة ـ تسجل على مؤلفيها جهلا عجيبا بعادات العرب . وانه ليكفى فى اظهار زيفها أن نقارن بعضها ببعض ، لأنها على تناقض ، بحيث ينسخ بعضها بعضا . وأخيرا فان غلوها فى الخيال . فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية ليظهر بأجلى بيان صدق تلك الآثار المـاخوذ بها فى العالم الاسلامى .

* * *

٨ ـ الغرض التجارى فى غزوتى بدر :

قال الأب لامانس : « لقد كانت غزوة بدر الأولى والثانية أقرب الى الحملات التجارية منهما الى الحرب اذ كان المسـلمون يحملون معهم

تجارتهم للعمل فيها بسوق بدر التجارى قبل المعركة وفى انتظار اشتعال أوارها » .

وقد اجابت زاهية قدورة قائلة(٢٥) : الم يدر « لامانس » انه من العبث فصل الحياة الاقتصادية عن الحياة السياسية ؟ ـ ذلك اذا صح ادعاؤه ـ كما أن اصطحاب التجارة والأمتعة الى الحرب حينذاك كان ضرورة لاتقاء العوز فى حالة دوام القتال حينما يكونون بعيدين عن حاجيات الحياة ، ثم لاكتساب الفرص فى البيع والشراء بعد توطيد الأمر . اذ يكون من الوعى الصحيح والنشاط الكبير أن يفكر المرء فى الأمرين معا . ما دامت المسافة بعيدة والنقل شاقا . فهذا اذن ليس معناه أن الغرض الأول فى تلك الغزوات التجارة فحسب ، وليس فى هذا التعليل ما يوجب تغيير وصف الغزوتين من أنهما حربان للقضاء على الشرك الى « حرب من أجل المال » .

والواقع التاريخى ينكر ما قاله لامانس فضلا عما أجابت به السيدة زاهية . فأين تكون الحملة التجارية فى غزوة بدر الكبرى . وقد كان خروج النبى من المدينة فى أصحابه لثمان خلون من شهر رمضان سنة ٢ هـ . وكان جنوده ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا يعتقب كل اثنان بعيرا . وأحيانا كل ثلاثة أو أربعة يعتقبون بعيرا ، اذ كان عدة ما معهم سبعين بعيرا وثلاثة أفراس . ولم تلبث الحرب ان نشبت بعد أيام .

أما بدر الآخرة فلم يكن بها معركة . وانما كان أبو سفيان قد أنذر المسلمين يوم أحد بالحرب فى بدر العام القادم .. فحمل المسلمون الى سوق بدر تجارتهم وهم مستعدون لحماية أموالهم لو أن أبا سفيان أنفذ وعيده ، فالرحلة للتجارة ولكنها تجارة قوم محاربين يتربص العدو بهم الدوائر ، وحين جاء أبو سفيان على رأس ألفى مقاتل أو يزيدون ووصلوا « مجنة » من ناحية الظهران قال أبو سفيان لقومه : « يامعشر قريش ، انه لا يصلحكم الا عام خصيب .. وان عامكم هذا جدب .. وانى راجع فأرجعوا » ، ورجع الناس . وفرغ الرسول وقومه من تجارتهم بعد ثمانية

---

(٢٥) عائشة أم المؤمنين ص ١٧ .

أيام من مقدمهم فى شعبان سنة ٤هـ، فرجعوا الى المدينة غانمين سالمين(٢٦) دون اشتباك ولا معركة ٠

* * *

٩ ـ اتهام عائشة بالتآمر لاستخلاف أبيها :

زعم لامانس أن عائشة كانت تناصر ما سماه « الحكومة الثلاثية » بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة اذ اتفقوا على تولى الخلافة بالترتيب السابق ٠ وأنها كانت تهيىء الجو لنجاح ذلك الاتفاق فى منزل الرسول ٠ وكان اتفاق الثلاثة فى عهد النبى ، وقد عملوا لذلك : ففسخ ابو بكر خطبة عائشة لجبير بن مطعم ليزوجها الرسول بالرغم من امتناعها واشمئزازها لتكون أكبر معين له على تحقيق أطماعه ، وزعم أن عائشة وحفصة بالرغم مما بينهما من تباغض لم يختلفا فى أداء ما يجب لتحقيق هذا المطمع ٠ مما أدى الى وقوف معظم زوجات النبى ضد حزب عائشة وحفصة وقد كان «محمد» عاطفيا ، ولا سيما بعد أن كبر ورق عوده فكان لعائشة سلطان كبير عليه ٠

وقد أجابت زاهية قدورة عن هذه الشبهات بما خلاصته(٢٧) :

١ ـ فسخ أبى بكر خطبة جبير ليس كما قال « لامانس » ٠٠ ولكن أم مطعم أرادت أن تستوثق من أن أبا بكر لن يدخل ابنها فى الاسلام ٠ فلما لم تجد من أبى بكر رضاه عن استمرار ابنها على دينه رغبت هى وزوجها فى فسخ هذه الخطبة ٠ حقا كان لأبى بكر رغبة فى أن يشرف بمصاهرته ٠ ولكن هكذا سار الأمر طبيعيا ٠٠ تماما كما حدث فى زواج النبى بحفصة اذ لم تجد من يتزوجها ٠ رفض أبو بكر هذا ٠ ورفضها عثمان فقال النبى لعمر حين شكا اليه رفض عثمان : « حفصة يتزوجها خير من عثمان ، وعثمان يتزوج خيرا من حفصة » ثم خطبها لنفسه ٠

---

(٢٦) فقه السيرة ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ، وحياة محمد لهيكل ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ٠

(٢٧) عائشة أم المؤمنين ـ الفصل الثالث ص ١٤٣ وما بعدها ٠

٢ ـ أما أن عائشة كانت تشمئز من هذا فالواقع ينكره.لقد كانت تتعلق بالنبـى فى طفولتها لأنه كان يوصى بهـا خيرا . وكانت تدرك عظمته ورجولته وشرف الزواج به فضلا عما اشتهرت به من الحب العميق له والغيرة عليه غيرة تحدث بذكرها الركبان .

٣ ـ ولقد كان زواجها بالنبى صغيرة ولا يسمح سنها بالقدرة على حبك المؤامرات التى هى من عمل أصحاب الأنياب الزرقاء .

٤ ـ وما زعمه « لامانس » من أن مهمة عائشة كانت تحبيب ابى بكر للرسـول ، وأنها فى حبها لزوجها انما أرادت تحقيق غايات أبيها . وآخر تلك المجهودات امامة أبى بكر للمصلين فمردود :

(أ) لأن حب النبى لأبى بكر كان معروفا قبـل الزواج ، فقد اصطفاه خليلا ورفيقا فى هجرته حتى نزل بذلك القرآن « **ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا** »(٢٨) وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر .ولكن أخى وصاحبى » وهـذه الأخوة كانت معروفة قبل الزواج حتى ان خولة بنت حكيم حين ذهبت تخطب عائشة من أم رومان ، قالت : كيف والنبـى أخو أبيها أبى بكر ؟ !

(ب) روى عن عائشة أنها لم تكن ترغب فى امامة أبى بكر عكس ما زعم لامانس ، فقد روى أحمد فى مسنده (جـ ٦ ص ٢٢٤) والبخارى فى صحيحه (١/١٧٥، ١٧٦) أن رسول الله ﷺ قال:«مروا أبا بكر فليصل بالناس » . فقالت عائشة : ان أبا بكر رجل رقيق الصوت لا يستطيع الصلاة. فكرر الرسول أمره ثلاث مرات . وفى رواية أخرى : أن عائشة اقترحت اسم عمر وطلبت من حفصة أن تقترح هى أيضا عمر . ففعلت حفصة استجابة لقول عائشة التى لم تقل الا حقا معروفا . فقال الرسول : « لأنتن صواحب يوسف » ويروى ابن حنبل أن النبى ﷺ كان قد أصدر أمره الى عبد الله بن زمعة ليبلغه أبا بكر فلما لم يجد عبد الله أبا بكر دعا عمر

---

(٢٨) التوبة : ٤٠ .

الى الصلاة ، وكان جهير الصوت ، فسمعه الرسول وعرفه ، وعندئذ طلب النبى من عائشة أن تأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فأجابته « يارسول الله ان أبا بكر رجل رقيق . لا يملك دمعه . وانه اذا قرأ القرآن بكى » وأخيرا صلى أبو بكر بالناس . فأين أثر عائشة وسيطرتها على الرسول ؟

« وهذه الروايات تتفق فى معناها . ويتضح منها انه لا صحة لادعاء لامانس ، فلو أنها كانت تعمل لامامته الصلاة لما طلبت أن يصلى غيره بالناس . ولو أنها كانت متفقة مع أبيها ــ كما يقول ــ لكانت هى البادئة فى ذكر اسم أبى بكر . وقد عزيت امامة أبى بكر الى أنها ترمز الى استخلاف النبى له . فكيف اذن يوفق بين قوله : ان عائشة تعمل على تولية أبيها خلافة الرسول فى امامة المسلمين ، وبين الواقع ، انها أرادت أن تحول دون ذلك .. وقد قالت فى هذا : « والله ما بى الا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم فى مقام رسول الله ﷺ » . فأين اذن المؤامرة المدبرة من الاتفاق الثلاثى وعائشة ؟ واين اذن خضوع الرسول واستسلامه لرغبات عائشة ؟ وهو الذى كان على وشك طلاقها ــ مع سائر زوجاته ــ لطلبهن زيادة النفقة ، وهو طلب عادل فى حقيقته ، غير أن الرسول رأى أنه يتنافى مع رسالته .

(جـ) ولم يطل مرض الرسول الا خمسة عشر يوما فى بيت عائشة ، والناس تتلهف لسماع أخباره بين زائر وسائل ، ولا يعقل أن تستطيع عائشة بهذا الزمن القصير أن تدبر المؤامرة ، بالاتفاق مع أبيها ــ لدعم مركزه كما قال (Huatt) ولا سيما أن بيت عائشة لم يكن الا غرفة واحدة فيها المريض . وفيها الزوار أو الزوجات . فلم يكن الوقت أو المكان مناسبا للنشاط الذى زعمه المستشرقون .

والثابت أن عائشة لم تتدخل فى السياسة فى عهد النبى ولا أبيها ولا عمر ولا بدء عهد عثمان . فلما اضطربت الأمور وشكا الناس الى أمهم عائشة تدخلت فى الأمر . جاء أهل الكوفة يشكون الوليد بن عقبة الذى تولى أمرهم بعد عبد الله بن مسعود . فالفرق بين الشخصيتين وحده كان كافيا للاحساس بالفرق المثير للرعية .

واختصم أهل البصرة مع عاملهم · وأهل مصر مع أميرهم ـ عبد الله ابن أبى سرح ـ فلما كثرت الشكوى حاول الصحابة نصح عثمان ، ومنهم عائشة يسألونه أن ينصف الناس من عماله وكان اشتغالها بالسياسة اجتهادا منها خالفتها فيه أم المؤمنين « أم سلمة » حين خرجت الى البصرة مع طلحة والزبير وقالت : « ياعائشة ، ان عماد الدين لا يقام بالنساء » وان كانت ـ فيما يرويه الشعبى عن ابن أبى الحديد ـ تفضل عليا للخلافة عن طلحة والزبير · وهى رواية مطعون فيها · وقد بررت عائشة عملها بقولها : انما أخرج للاصلاح بين الناس وارجو فيه الأجر ان شاء الله · وقرأت قوله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف أو اصلاح بين الناس »(٢٩) ·

فهى داعية الى حق تراه · ولما حدثت واقعة الجمل التى راح ضحيتها نحو عشرة آلاف مقاتل من الفريقين ندمت حتى قالت للقعقاع ابن عمرو : « والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشر سنين » · وكانت اذا قرأت الآية «وقرن فى بيوتكن»(٣٠) بكت حتى تبل خمارها ··و كانت كلما ذكر يوم الجمل تبكى حتى كان يظن من رآها أنها لا تسكت ، وقبل وفاتها قالت : انى قد أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فادفنونى مع أزواج النبى ، تعنى خروجها مخالفة الآية « وقرن فى بيوتكن » ·

ولم يكن وقوفها ضد على لما ذكره المستشرقون وأمثالهم الذين تستروا بالاسلام قديما من قوله للنبى فى حادثة الافك : النساء غيرها كثير · فكان ما كان ، وقد خطبت الناس حين غادرت البصرة قائلة : « انه ـ والله ـ ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها · وانه عندى على معتبتى من الأخيار » · وقال على : « يا أيها الناس ، صدقت والله وبرت ، ما كان بينى وبينها الا ذلك ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة » ·

* * *

---

(٢٩) النساء : ١١٤ ·　　(٣٠) الأحزاب : ٣٣ ·

١٠ ـ اتهام عائشة بالتجسس :

اتهم « لامانس » عائشة بالتجسس على النبى لمصلحة ابيها كي تخبره بما يجب معرفته • وقال : انها استمعت والرسول يتحدث مع عثمان ابن عفان • يعنى بذلك ما جاء فى المسند لأحمد (جـ ٦ ص ١١٤) انها قالت : « ما استمعت على رسول الله ﷺ الا مرة • فان عثمان جاء فى نحر الظهيرة • فظننت انه جاءه فى أمر النساء فحملتنى الغيرة على ان أصغيت اليه فسمعته يقول : « ان الله عز وجل ملبسك قميصا تريدك أمتى على خلعه فلا تخلعه » • فلما رايت عثمان يبذل لهم ما سالوه الا خلعه علمت أنه من عهد رسول الله ﷺ الذى عهده اليه •

والحادثة الثانية التى يرى لامانس انها ذروة التجسس هو افضاؤها لأبيها بما لم يكن الرسول قد قاله لأحد يوم عزم على فتح مكة • اذ دخل عليها ابوها • فوجدها تدبر جهاز الرسول • فقال : يابنية آمركم رسول الله ﷺ ان تجهزوه ؟ قالت : نعم • فتجهز • قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : لا ـ والله ـ ما أدرى !!

والحادثان لا يستتبعان هذا الادعاء • فالحادث الأول : نزعة ودافع غيرة واضح من حديثها نفسه • اما الحادثة الثانية فليس فيها ما يفهم منه التجسس • اذ كان لا بد للرسول ﷺ من ان يخبر عن تجهزه للسفر • وقد أخبرهم فعلا بذلك لما حان الوقت •أما جوابها بأنه مسافر • فذلك ما لا يحتاج الى كبير عناء لمعرفته ، طالما كانت كل الظروف التى رآها أبو بكر فى منزل الرسول ﷺ توحى بأنه يريد السفر • ولو انها اخبرت اباها بالجهة المقصودة لكان فى ذلك ما يؤيد رأى « لامانس » • اما وقد أنكرت معرفتها سواء علمت أو لم تعلم ، ففيه الدليل الكافى على دحض قول لامانس •

وقد قالت الكاتبة « Nabia Abbot » : ان ماسماه « لامانس » بالتآمر والتجسس ليس الا تصرفات طبيعية لامرأة شابة جميلة فرض عليها الحجاب مؤخرا •

« لقد جزم « لامانس » جزما قاطعا بما وصل اليه من نتائج • بالرغم

من أن الأسباب التى استند اليها لم تكن لتزيد عن حادثتين ، وليس من صفات العالم أن يعطى حكما قاطعا من ملاحظتين . والعالم الصحيح هو الذى لا يصنع قاعدة الا اذا تكررت أمثلتها ، وتأكد من صحتها . أما « لامانس » فقد اكتفى بحادثتين ، ووضع قواعد دلت النصوص على خلافها . فهل يبرر البحث العلمى ـ وقد رأينا كيف كانت أسسه عند الأب المحترم ـ اصدار أحكام قاسية كالجاسوسية والتآمر والسيطرة على رجل عاطفى ؟

« العالم الحق هو الذى ينظر الى الحقيقة كاملة . لا الذى يأخذ نصفها . ويترك النصف الآخر ، أو يتجاهلها . لأن الحقيقة وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها . فتصبح نصف حقيقة مبتورة مشوهة .

« ولنذكر ـ بعد كل ذلك ـ أن « لامانس » وهو يكتب عن نبى الاسلام ورجال المسلمين ، انما يرتدى الثوب الكهنوتى اليسوعى ، وأن مهمته الأولى هى التبشير لغير الاسلام فى بلاد المسلمين » (٣١) .

« وقد كان يفيده أن يمعن النظر فى طاعة عائشة لزوجها وسيطرته التامة عليها بالرغم من حبه وتدليله لها . حتى انها لم تكن تزور أباها فى أثناء مرضه الا باذن من الرسول . لو فعل ذلك لأفاده عدم الانزلاق فى هذا الخطأ الأخير .

« أما ادعاؤه الآخر أنها لعبت دورا فى تولية أبى بكر الخلافة . فهو بدوره ينقصه الدليل . وقد وردت عن عائشة أقوال عن الرسول فى فضل أبى بكر وتفضيله الا أننا نرجح أنها نقلت عنها بعد وفاة الرسول ﷺ والا لسئل عنها رأسا . ولا يعقل أنها قيلت عقب وفاة الرسول مباشرة . فقد كانت عائشة فى شغل عن الدنيا كلها ، فى حزن على هذا الذى فقدته . واذن فتكون هذه الأقوال قد قيلت بعد أن بويع لأبى بكر .. وبالتالى يكون ادعاء « لامانس » أنها لعبت دورا مهما فى استخلاف أبيها . وحبكت المؤامرة من أجل ذلك ، غير صحيح »(٣٢) .

***

---

(٣١) عائشة أم المؤمنين ص ١٥٦ .

(٣٢) المرجع السابق ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

الرد على مستر كاش

● دعوى مسحة مسيحية على محمد (صلى الله عليه وسلم) :

قال المرحوم العلامة « خ . كمال الدين » فى كتاب « المثل الأعلى فى الأنبياء » الذى ترجمة الأستاذ أمين محمود الشريف :

« دابت المجلة الاسلامية على أن تنشر بين الفينة والفينة صورا قلمية فى وصف المصطفى ﷺ ، فلما قرأها مستر « كاش » عقب عليها فى كتابه المسمى « العالم الاسلامى فى ثورة » بأننا نصور النبى ﷺ بصورة عليها مسحة من المسيحية .

والحق أن الغرب لم يعرف الاسلام ورسول الاسلام على حقيقتهما الا منذ عهد قريب جدا . وجل ما كان يعرفه الغرب عنهما لم يكن سوى أساطير من نسج الخيال حيكت خيوطها باتقان ، وافتراها قوم لا ضمير لهم ولا وجدان . ولكن سرعان ما تجلت صورة الحق فى جمالها الطبعى حتى بهرت أبصار الأعداء ، وفضحت زيف ما كتبوا وسطروا ، وهدمت صرح ما بنوا وشيدوا ، وتبدت لهم صورة الحق رائعة ساحرة تأخذ بمجامع القلوب ، وتستأسر أحداق العيون ، فلم يستطيعوا أن يجدوا فيها مأخذا ، ولا الى النقد منفذا ، وما كان جوابهم الا أن قالوا : « صورة محمدية مستعارة من المسيحية » ، ثم قالوا : «لا جدال أن هذه الصورة رائعة الحسن والجمال . فلا يمكن أن يكون مصدرها الاسلام » ، تلك كانت حجتهم التى وجدوا فيها بعض سلوى وعزاء ، ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ان حجتهم داحضة ، وأن قضيتهم خاسرة ، فنكسوا على رؤوسهم ، ولاذوا بأذيال دعوى جديدة فقالوا : « اسلام جديد ومحمد جديد » ، تلك هى صيحتهم اليوم ، وما كنا لننتظر منهم أكثر من هذا الثناء ، وقد قبلنا ما قالوه على هذا الاعتبار .

نعم لا يزال ذكر المصطفى ﷺ جديدا على أسماع أهل الغرب ، مثله فى ذلك كمثل زهرة جميلة كأجمل ما أنت راء فى زهور الطبيعة . كلما مرت عليها الأيام زادت حلاوة وطلاوة ، وكلما مرت عليها الأيام زادت

غضارة(٣٣) ونضارة ، والواقع ان ما يراه الجاهل قبيحا منفرا يــراه العالم جميلا ساحرا ، وكلما أنعم النظر فيه تبدت(٣٤) له محاسنه .

وانه لمن دواعى الأسف أنه ليس الجهل وحـده هو الذى حجب أنظار أهل الغرب عن مشاهدة أنوار المصطفى ﷺ . بل ران(٣٥) على قلوبهم ما كانوا يكسبون من افتراء الكذب ، وتحريف الوقائع وكتمان الحقائق .

ان دعواهم « محمد جديد واسلام جديد » ليست صيحة جديدة . بل هى صدى للصيحة القديمة التى تتردد فى الغرب كلما ظهر فى أوروبا أحد المعجبين بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ممن لا يخشون فى الحـق لومة لائم . ومن قبل ما قالوا عن « جيبون » انه كاتب وثنى . لأنه أثنى على النبى ﷺ ، وقال كلمة الحق عن حالة المسيحية وقت مبعثه مما لم يرق فى نظرهم .

ولما جاء « كارليل » وكشف النقاب عن الجمال المحمدى وجلاه لأعين الغربيين ، هبت فى وجهه الصيحة القديمة بعنف حتى اضطر عميد جامعة أدنبرة أن يذعن لها ، واضطر على الرغم من قوة شكيمته أن يخفف من لهجة ثنائه فيما بعد . ولكنه على كل حال فتح أعينا عميا وآذانا صما ، وأعقب كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ما كتبــه هجنز وديفونبرت ويوز ورث سمث فى انجلترا وكرهل وجريمنس فى ألمانيا .

أما الكتاب العظيم الذى ألفه « كيتانى » الايطالى فيرى علماء الغرب أنه هدم الدعاوى المتكررة التى يحتج بها النصارى على الاسلام .

وجملة القول ان نظرة الغرب الى النبى ﷺ قد تغيرت . فلم يعد فى نظر الغرب دجالا . بل مصلحا عظيما، ولم يعد مصابا بمرض عصبى يشكو من الصرع . بل رجلا ذا شخصية عظيمة وعزيمة ماضية بل حاكمـا

---

(٣٣) غضارة : حسنا وامتلاء .
(٣٤) تبدت : ظهرت .
(٣٥) ران : تكاثف وأصبح حاجبه كثيفا .

مستنيرا يغمر الرعية بحبه وفضله ٠ ولم يعد رجلا وصوليا ٠ بل نبيا ذا مبدأ ثابت لا يحيد عنه ولا يتزحزح ٠ كل هذا قد اعترفت به أوروبا اعترافا صريحـــا ٠

٠٠٠ « وان النهضة الحديثة التى عم نورها أهل الغرب وفتحت أعينهم الى مزايا الاسلام هى التى أشاعت الاضطراب فى معسكر الأعداء ٠ ونفذت الصورة التى جلونا فيها مناقب النبى ، الى أعماق قلوبهم بدليل قولهم : اننا نحاول التدليل على أن محمدا ﷺ هو المثل الأعلى للانسانية من الوجهة الخلقية ، وأننا لجأنا فى سبيل ذلك الى تصويره فى صورة جديدة استعيرت ألوانها من المسيحية ٠

* * *

● الرد على الدعوى :

ولكننى أسأل المسيحيين بصفة جديدة ٠ فأقول : « هل يوجد فى المسيحية من الألوان ما يسعف ريشة المصور فى رسم صورة سوية تصلح ان تكون مثلا أعلى للانسانية ؟ الواقع أن المبشرين يطلقون لقب مسيحى على كل ما يروق فى نظرهم وان لم يرد له ذكر فى كتابهم ٠ وبتتبع الثابت عن رسول الله ﷺ من السيرة ثم بدراسة الانجيل يمكن أن نعرف عن بينة ان الكتاب المقدس ليس فيه عشر ما دون عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى تتبين فرية(٣٦) القائل اننا نستعير لمحمد وصفا مسيحيا ٠

وان كثيرا من الفلاسفة مثل دكتور « غوستاف لوبون » ومثل « ول » ومثل مستر « بول » تحدثوا عن محمد عليه الصلاة والسلام بما ردده المؤرخون العرب القدماء ، وبما نستنبطه نحن المحدثين ، فهل يقول مستر كاش ان هؤلاء أيضا قد خلعوا على محمد ﷺ أوصافا مسيحية ؟ جدير به أن ينعم النظر قبل أن يجرؤ على هذا الزعم ٠

* * *

---

(٣٦) فرية : ادعاء كاذب ٠

أهى جرائم قتـــل ؟

عقد المستر « كاش » فى كتابه « اتساع رقعة الاسلام » فصلا بعنوان « جرائم القتل » أورد فيه قصصا استدل بها على غلظ قلب النبى « المبعوث رحمة للعالمين » .

١ ـ مقتل عصماء :

فزعم أن النبى ندب أبا بصير عمير بن عدى وهو كفيف البصر الى قتل امرأة من قومه هى عصماء بنت مروان ، وهى شاعرة يهودية ولاؤهـا لبنى الأوس .

والجواب : انها كانت تسـب النبى كثيرا سبابا فاحشـا بعـد مقتل ابى عفك اليهودى . وكانت سليطة ترهب الذين يريدون أن يدخلوا فى الاسلام من قومها ، فلما قتلها أبو بصير استعلن بالاسلام من قومهـا كثيرون .

وهى رواية منكرة لأنها تخالف الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ من نهيه عن قتل النساء فى الحرب فما بالنا بذلك فى السلم؟!.وفى صحيح البخارى باب بعنوان « قتل النساء فى الحرب » روى فيه النهى عن قتـل النساء والأطفال . وفى فتح البارى أن أصحاب النبى الذين ذهبوا لقتـل عدو الله ابن أبى الحقيق امسكوا عن قتله حين حالت بينهم وبينه زوجه ، تنفيذا لحديث النهى عن قتل النساء .

ثم ان هذه الرواية لم يروها محدثون ثقات ، فهى رواية الواقدى وابن سعد وابن هشـام .

* * *

٢ ـ مقتل أبو عفك :

ثم زعم أنه عليه الصلاة والسلام قتل أبا عفك وكان عمره (١٢)عشرين ومائة سنة .

والجواب : ان هذا يخالف الثابت عن رسول الله ﷺ من النهى عن قتل العجائز ، ففى سنن أبى داوود عن انس أن رسول الله ﷺ قال :

« انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ، ولا تغلوا وضموا غنائكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » . وهى وصية محفوظة كررها أبو بكر فأوصى بها جيش زيد حين أرسله الى الشام اذ قال له « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا(٣٧) ولا تمثلوا(٣٨) ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة » ، وهذا خير دليل على كذب وبهتـان هذه الفرية أيضا .

* * *

٣ ـ أبو سنينة واليهود :

وقد زعم أن النبى أمر بابادة جميع اليهود حتى تمكن من قتل أبى سنينة .

والجواب : أن هذا ينقضه ما صح عن النبى أنه نهى عن قتل النساء والأجراء الذين يقومون بأعمال غير القتال وعن قتل الشيوخ والأطفال كما فى حديث أبى داوود . وكل رواية عن قتل انسان لم يشترك فى القتال اشتراكا فعليا أو استحق القتل قصاصا أو حدا . فهى مكذوبة على رسول الله ﷺ وان كان اسنادها صحيحا .. ومن هذا القبيل رواية مقتل أبى سنينة « فان الادعاء بأن النبى صلى الله عليه وسلم أصدر أمرا عاما بابادة اليهود ، كان من نتيجته قتل أبى سنينة وحده . ادعاء يناقض نفسه بنفسه . فكيف يكون مقتل رجل واحد نتيجة أمر عام لابادة اليهود جميعهم »!(٣٩) .



(٣٧) الغلول : هو اخفاء شىء من الغنائم قبل توزيعها على الجنود . فالواجب على الجندى أن يسلم ما يغنمه لقيادته .

(٣٨) التمثيل بجثث القتلى هو تشويهها لشدة الحنق والغضب على أصحابها .

(٣٩) زكريا هاشم فى المستشرقون والاسلام ص ٣٠٨ .

٤ ـ مقتل كعب بن الأشرف :

كان والده من طيء . وقد تزوج كعب من بنى النضير فكسب بنسبه ومصاهرته منزلة كبيرة . وعندما وفد النبى ﷺ على المدينة عقد معاهدة مع اليهود على أن يكون المسلمون واليهود معا ضد كل معتد على المدينة . ولكن بعد بدر اغتاظ اليهود ومنهم كعب الذى أخذ يهجو النبى بشعره محرضا المشركين على قتاله ، ورحل الى مكة يحرض أهلها على الرسول . ولم يكتف بهذا بل وضع خطة لاغتيال الرسول عقب عودته من مكة . وانقلب من موقف الحليف الى موقف الأعداء المقاتلين فاستحق الاعدام . ولكن « كاش » و « موير » يجعلان من مقتله سبة عار لحركة الاسلام ..

وقد روى ابن سعد أن اليهود لما جاءوا الى النبى يشكون اليه مقتل كعب قال لهم : انه آذانا . ولو وقر كما وقر غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شر . وعرض عليهم النبى أن يكتب لهم كتابا فقبلوا . وبقى هذا العهد عند « على » وقد روى البخارى أسباب قتل كعب التى ذكرناها . وهناك رواية أخرى تقول : ان محمد بن مسلمة حين سأل النبى فى قتله كعبا قال له : « ان كنت فاعلا فلا تعجل حتى تستشير سعد بن معاذ » وفى رواية أنه سكت ولم يحر جوابا .. ولكن لورد« موير » يكثر من ذكر تفاصيل خطة اغتياله موهما أنها من صنع محمد عليه الصلاة والسلام . وموير نفسه يبدى التشكك فى هذه التفاصيل . وموير وكاش وغيرهما يعلمون أن كل القوانين الوضعية والسماوية تجعل مجرم الحرب المحرض على نشوبها والمدبر لها مستحقا للاعدام .. وهذا هو الذى فعله المسلمون . غير أنهم كانوا نبلاء فرسموا الخطة التى تكفل عدم اراقة دماء غير دم المجرم . فاستدرجه محمد بن مسلمة ليلا الى خارج الحصن فقتله . حتى لا يتعرض لحماية قومه أو آل بيته فتكون الضحايا أكثر من جزور .

***

٥ ـ مقتل سلام بن أبى الحقيق :

ولا أدرى أى غضاضة فى مقتل سلام ، انه كما يعترف « كاش » و « موير » شجع بعض القبائل المجاورة على قتال المسلمين حتى نهض

على بن ابى طالب على راس جماعة اطفات نار غدرهم • وكان سلام هـذا قائدا فى موقعة الأحزاب فهل فى قتل المحاربين والمحرضين على حرب المسلمين غضاضة او خطيئة أو تهمة لمن قتله فقتل جرثومة شر بقاؤها بقاء للفتنة ؟ ••

* * *

٦ ـ سبى نساء بنى المصطلق :

زعم « كاش » أن المسلمين أسروا نساء بنى المصطلق •• وكل ما جاء فى الأمر هو ما روى عن أبى سعيد الخدرى أن نفرا من المسلمين شاءوا أن يتزوجوا بعض الأسيرات زواج متعة • على أن يعزلوا حتى لا تحمل الزوجات • فنهى عن ذلك الزواج الذى يسمى زواج المتعة • والثابت الصحيح أن النبى تزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق فأطلق المسلمون كل الأسرى الذين فى أيديهم تكريما للنبى ﷺ •



شبهات كارليل

عاب « كارليل » على القرآن :

١ ـ نقص الترتيب فيه ويزعم أنه ليس مرتب الفكر .
٢ ـ ولا منطقيا .
٣ ـ وبه تكرار .

الجـواب :

أما ترتيب الفكر القرآنى فانكاره دليل على أن القائل بهذا ضحل الثقافة الاسلامية . فالمفسرون الكبار لم يتركوا آية أو سورة الا وتعرضوا للعلاقة التى تربط الآية أو السورة بما قبلها وما بعدها . وذلك لأن ترتيب الآيات القرآنية توقيفى بالاجماع وترتيب السور توقيفى عند الجمهور . وفى تفسير سورة القصص الذى كتبته نماذج لهذا .

وعذر الغربيين فى هذه الدعوى عندما قالوها أن طبيعة عصرهم كانت تجنح الى التنظيم الكمى والنوعى ومنطق الاحصاء والتبويب ، فأرادوا أن يمزقوا الهيكل القرآنى ليجعلوا منه أبوابا منوعة لركام نوعى . فكل ما يتعلق بالصلاة له باب ، وكل ما يتعلق بالقضاء له باب ، وما يتعلق بالقصة كذلك ، وهكذا ، كمن يمزق الانسان ليجعل الأصابع فى معرض والعيون فى معرض والأذنين فى معرض متجاورات .. ومثل هذا لا يجعل من الانسان انسانا ، فللعين رسالتها فى مكانها من الجسم مفصولة عن العين الأخرى بالأنف ، وهكـذا : أجزاء الآيات تؤدى كل آية وظيفتها الجمالية والعمليـة فى مكانها بين غيرها . وتفقد خواصها اذا جردت عما قبلها وما بعدها . وهكذا الفكرة الأدبية الرائعة لا تكون بتراء الا وهى شوهاء بالقياس اليها ذاتها وهى واسطة العقد ، أو حبة من حباته .

وقد انتقلنا من عصر الكم والاحصاء واطراد النظريات والتسـليم بقوانينها النسبية . الى عصر الايمان بالزمن كأحد الأبعاد الأربعة اللازمة

للأشـياء ٠ عصر فلسفة الحركة والتطور ، عصر التحليل النفسى وادراك ما سماه العرب الأقدمون فى النقد الأدبى « تداعى المعانى » ، ومنطـق العصر العلمى لا يعد اذن انسياب الأفكار والمبادىء المعروضة فى القرآن على ما هى عليه عيبا ٠ وانما يعتبره أمرا طبيعيا ٠ ٠ فالترابط نسبى ووراء الأبعاد المعروفة بعد آخر كان مجهولا ، ووراءها كشف مجهول لا ندرى كنهه ٠ والأسلوب القرآنى فيه طبيعة الحركة وفيه سمو الترقى بالقارىء ، عقله وروحه ووجدانه وسلوكه ٠٠ وطبقا لكل هذا الذى نعرفه وذلك الذى نجهـله كان القرآن ، وجهلنـا بالحكمـة لا يعنى انها غير موجودة ٠ ولو كان عند كارليل حس جمالى لأدرك مثلا فى تجاوز سـورة القمر بوعيدها وتهديدها المزمجر العاصف وسورة الرحمن بجناتها الوارفة المثمرة صورة واد مجدب رهيب انتهى الى واد خصب ظليل ٠٠

* * *

● **سطحية العبارة أم العمق ؟**

وأما عيب القرآن بأن منطقه سطحى ولا يصب فى اطار الهياكل المنطقية(٤٠) التى صممها المناطقة للفكر فمردود لأمور :

أما المنطق السطحى للقرآن فهو أحد وجهيه « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »(٤١) فلابد له ـ وهو كتاب هداية للكافة ـ ان يكون ظاهرا مقنعا مرشدا مفيدا بسطاء الناس وعامتهم ٠٠ وذلك مستوى نلتقى عنده كل مستويات الذكاء ، فتقوم بهذا الوحدة الأساسية التى تتلاقى عندها جميع الطبقات ، فلا تقع مأساة التمزق الاجتماعى الناشىء عن الانفصام(٤٢) الفكرى الطبقى ٠ انفصام الذين يعيشون فى الأبراج العاجية

---

(٤٠) الهياكل المنطقية هى أساليب الاستدلال وترتيب القضـايا المنطقية مثل ا = ب ، و ب = ج ، ا = ج ٠

(٤١) القمر : ١٧ ٠

(٤٢) الانفصام : الانقطاع والانفصال ٠

عن الذين يرقصون على زفيف السواقى(٤٣) وحفيف الذرة والقصب وسعف النخيل ٠

والوجه الثانى : هو العمق الذى وراء السطح وهو المتأملين ذوى البصر « **افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها** »(٤٤) وهو المعنى بمثل قوله سبحانه « **عبرة لأولى الألباب** »(٤٥) ، « **وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون** »(٤٦) ، « **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تأويلا** »(٤٧) ، وبقوله سبحانه مع التجوز « **فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(٤٨) ٠

واليك مثلا من القرآن قوله تعالى : « **افلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(٤٩) ٠ كلام مسطحه الدعوة الى تأمل المسلم فيما يسمعه من القرآن ، فهو من عند الله خالقه ، والدليل على ذلك عدم وجود اى اختلاف واضطراب فيه بل هو محكم بديع مستقيم الأسلوب والأفكار والعظات ٠٠ وهذا المعنى الوهلى يكفى جدا ملتقى فكريا للبشرية فى موضوع الآية ٠ فهى سطحية مثمرة ٠

وأما المختصون وذوو المدارك العالية فالآية تفيض من اعماقها ما يفيضه النبع الثر البكر ، فتدبر القرآن معناه تقليب وجهات النظر ظهرا لبطن فى مسائله ٠ وتحليلها والتعرف على الغايات منها بعد اكتشاف اسباب النزول ان كانت أسبابا شخصية أو ظاهرة اجتماعية تاريخية فى وقوعها او متوقعة من شأن مسيرة الأحداث أن تصل اليها ٠

والاستفهام للانكار والتقريع ٠ وفيه نعى على القيادات الشعبية الا تكون ذات بصر ثاقب بمجريات الأمور وربط مسيرتها بالقرآن : دفعا لها

---

(٤٣) زفيف الساقية صوتها حين تدار ، والأصل فى اللغة أن يقال زف الظليم (ذكر النعام) : اسرع ، وزف البرق : لمع ٠ والمراد هو دوران وصوت الساقية ٠

(٤٤) محمد : ٢٤ ٠

(٤٥) يوسف : ١١١ ٠

(٤٦) العنكبوت : ٤٣ ٠

(٤٧) النساء : ٥٩ ٠

(٤٨) الأنبياء : ٧ ٠

(٤٩) النساء : ٨٢ ٠

طبقــا للأوامر الموجبة ، أو منعا وقمعا وتعويقا طبقــا للنواهى الكافية الراجرة • ولا يتم ذلك لرجل الا لمن عايش القرآن بقلبه وعقله وتطبيقاته • ومعنى هــذا أن القرآن يريد خلق قادة ذوى بصر بدستور واضح المعالم • محدد الغايات والمسالك • وهــذه قمة تنشأ الآن من أجلها مدارس الساسة العالية فى الغرب • ومدارس ما يسمى بالكوادر فى الشرق • وهو آخر مبتدعات الدراســات الاجتماعية والســياسية فى هذا القرن •• وآخــر ما ابتدعته هــذه الدراسات هى ذرات فى سفح الجبــل الأشم الراسى « الاســلام » •

ثم ماذا يعنى بتدبر القرآن ؟ أقصصه ؟ أنواهيه ؟ أوامره ؟ التذكير بالله ؟ • ما آثار ذلك فى المتدبر وما العلاقة بين شــطر الآية الأولــى وشطرها الثانى ، وما الذى ينكره على القرآن من الاختلاف ؟ وما وجه الدلالة على أن القرآن من عند الله ما دام خاليا من أوجه الاختلاف ؟ هذه وغيرها دراسات عميقة فى الآية للمتخصصين • ألم بها الامام محمد عبده ومحمد رشيد رضا فى تفسير المنار (جـ ٥ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٧) •

ولقد عرف الوليد بن المغيرة المخزومى فى الجاهلية سطح القرآن الأعلى وعمقه الأسفل فقال : ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وما هو من قول البشر ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** »(٥٠) •

وأما أن القــرآن غير منطقى ولا عميق لأنه يخاطب ذوى الذكاء المحدود • فقول ساقط ، لأن القرآن يخاطب كل الطبقات بلغة انفردت بقدرتها على احتواء كل عقول السامعين مهما اختلف مستواهم الذكائى ••

وفضلا عن هذا ، فقد انطوى العصر الذى يعرف فيه الانسان بأنه فقط حيوان ذكى • وقد انطوت فلســفة علم النفس التى تجعل كل أحداث الكون وتصرفات الانسان وصلاحيته لأداء دور الانسان فى الحياة طبقــا لمــا تنطق به أرقام « مقاييس الذكاء » ، لقد انكشف لذوى البصائر أن

---

(٥٠) الكهف : ١٠٩ •

هنالك مثلا عليا ٠ وأحاسيس انسانية ، وما يسمى « ضميرا » واعتذر لأستاذنا كامل النحاس منكر « الضمير » كجهاز فى الانسان ، فاننى أعنى به مصطلحا خاصا بمركب أدبى عاطفى اجتماعى علمى ، به يكون احساس المرء بالرضا عن عمله أو بالوخز والألم ٠ وهـذه الأحاسيس والمثل مع غيرها تحكمنا فى مسيرتنا الاجتماعية ، والقرآن اذن حينما يجنح فى منطقه الاقناعى الى تكوين « عاطفة » أو « وجدان » أو « ضمير » الى جانب المنطق العقلى بالدليـل العلمى ٠ يكون هـو المنطقى مع الانسان ٠ ومع الفكر ومع علم الاجتماع والنفس ٠ ويكون المنكرون عليه هذا الأسلوب هم الفاقدى المنطق والمختلى التفكير ٠

والعجب أن المستشرقين حين يثيرون هذا على القرآن ينسون ـ وكثيرون منهم مبشرون والقلة هم الملحدون ـ أو يتناسون أن التـــوراة والانجيل قد عمدا الى الوجدان يناجيانه ٠ والى الخيال والتصوير البيانى ينميان الشـعور الطيب ، فبه الاندفاع الى الخـير قبل أى بحث عن العلة المنطقية ٠

والحديث عن القالب الجدلى الفلسفى ا = ب ، ب = جـ ، ا = جـ ٠ وغيره من المقررات فى علم المنطق أصبحت نظريات أثرية « متحفية » ، وعلى الأكثر قضايا أولية مدرسية ، فللعصر الحديث الآن أساليب أخرى أقوى وأسرع ابانة واقناعا وتأثيرا ولذا ما أظن عاقلا يعيد هذه الشبهات التى نضح بها عصر البخار قبل بزوغ شمس عصر الفضاء ـ الا أن يكون كذابا أشرا بمضى الى المجاهل والأدغال النائية يقطع على أهليها طـريق النور والعرفان ٠ أو رذل سفه نفسه ٠

***

● التكرار :

وأما الحديث عن تكرار بعض الفقرات والمعانى بانه عيب ، فهذا دليل الجهل وفقدان التذوق الفنى ٠ ذلك لأن لكل جملة تكررت مزيتها ٠ كالعينين والأذنين فى الانسان والحيوان ٠ فمع أن لكل جارحة فائدتها

منفردة فان وجود العينين مجتمعتين ، والأذنين كذلك لهما مزايا تزيد عن المزية التى تعطيها العين أو الأذن أو الرئة والاصبع أو الذراع أو الكف فى حال الانفراد ، لا ينكر هذا الا مكابر أو من سفه نفسه ..

على أنه من البدهى أن المرء قد يقول الجملة الواحدة فى معرض لتؤدى غرضا ويقولها ذاتها فى معرض آخر لتؤدى غرضا آخر . وكما يؤدى الرجل منا عـدة وظائف تؤدى الكلمة القرآنية عـدة وظائف فى مقامات مختلفة بين سطور التنزيل . بل وفى مقامات مختلفة فى عالم السلوك . وهـذا سر خلود القرآن ونماء فلسـفاته ومعانيه مع الأزمان والأحداث . « **ولو أنما فى الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم** »(٥١) .

هذا من حيث الدلالات المعقولة ، وفى المكرر عند تكراره ، زيادة عن المعنى المنفرد عندما نقطع الجملة عن السياق .

وأما الناحية الفنية والجمالية ، فيبدو أن القائل بهذا وأمثاله لم يعرفوا طبيعة اللغة العربية وطبيعة العرب الذين هذه لغتهم . ان الصحارى والجبال والأودية فى حياتهم متشابهة ومتكررة . والفرق الذى يميز بينها دقيق لا يدركه الا الخريت المـاهر ، وهم يجدون الجمال فى هذا التشابه والتشاكل الذى يتطلب شحذ ذكاء كل من يعيش ويمشى فى هذه المسالك . والأذكياء لا يحبون الدلالات الصارخة كالدائرة الأولى فى أعلى لوحة كشف المنظـار . وكذلك جاء القرآن لقوم بلاغتهم فى الدلالة الذكيـة ، ولو أن القرآن نزل بلغة قوم أقل ذكاء ولمحا كالأوربيين لكان للمستشرقين من الأسلوب ما أرادوا ، فلكل لغة طابع أهلها فى تفكيرهم وتصوراتهم وتعبيراتهم البيانية . لو خرج عن هذه الأصول العامة لمـا كان له ايقاع على الوجدان ووقع فى القلوب .

على أن التكرار مظهر جمالى تلمسه فى الرسوم الزخرفية وفى الموسـيقى ، وفى الحركات الايقاعيـة المنتظمة ، وحتى فى تنظيـم الاستعراضات العسكرية والرياضية ، بل ان الجمال الفنى فى الشعر قوامه

---

(٥١) لقمان : ٢٧ .

الأول يرجع الى تكرار ايقاع المقطع · وجمال النثر المسجوع يعود الى ظاهرة تكرارية بوجه عام · ولذا يمكن أن يقال للقرآن أعظم سيمفونية سمعها العرب فخضعوا لها ، لأنها لحن معبر أصدق تعبير عنهم وعن مجتمعهم وعن الجنس البشرى الذى يحسون طبيعته فى أنفسهم ، ويستشعرون فيه دليل الأمن وروح الايمان · ان كل ما فى القرآن من مكرر وغير مكرر يمضى متسقا نحو غايات محددة ، هى تعميق الايمان بالله وحده ، وجذب العالمين اليه بذكر فضائله ونعيمه أو عذابه · ورسم المثل الواجب على المرء اتباعها فى عبادته وعاداته ليزداد بالله ايمانا ·· وهذا هو ابداع التصوير الفنى أو كما يقولون « التعبير القوى الأخاذ » ·

***

● **مقال القاسمى فى سر التكرير :**

الشيخ محمد جمال الدين القاسمى (١٢٨٣ ـ ١٣٣٢ هـ : ١٨٦٦ ـ ١٩١٤ م) من علماء الشام الكبار وقد جعل مقدمة التفسير الذى سماه محاسن التأويل فيما ينبغى للمفسر ودارسى القرآن أن يعلمه من علم الأصول وتاريخ القرآن وعلومه · وجعل لسر التكرير فى القرآن فصلا خاصا نقله عن الامام عز الدين بن عبد السلام من كتابه « الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز » وعن تقى الدين بن تيمية ، ولأهمية ما نقله نورده فيما يلى(٥٢) :

قال الشيخ عز الدين : « فتكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها ·

وتكرير القصص دال على الاهتمام بالوعظ للايقاظ والاعتبار · وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها · لأن منها ما يحث على الطاعة والايمان ، ومنها ما يزجر عن الكفر والعصيان وكذلك تكرير الوعد والوعيد ، وكذلك تكرير ذكر الأحكام · وكذلك تكرير المدح والذم وما يترتب

---

(٥٢) تفسير القاسمى جـ ١ ص ٢٥٧ ثم ص ٢٦٤ ·

على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات ، فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيبا فى ثوابها ، وتكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيبا من عقابها ، وتكرير النيران بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء فلا يقنطوا من رحمة الله وافضاله ، ولا يغتروا بحلمه وامهاله ، وتكرير الأحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات ، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالايضاح والبيان ، وتكرير ذكر النعم يدل على الاعتناء بشكرها .

« واعلم انه لا تؤكد العرب الا ما تهتم به فان من اهتم بشىء اكثر من ذكره . وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد . وكلما خف خف التأكيد . وان توسط الاهتمام توسط التأكيد . فاذا قال القائل : زيد قائم فقد اخبر بقيامه ، فان أراد تأكيد ذلك ـ عند من يشك فيه أو يكذبه أو ينازعه فيه اكده فقال : ان زيدا قائم . فاذا جاء بـ « ان » فكانه قال : زيد قائم زيد قائم ، فان زاد فى التأكيد قال : ان زيدا لقائم ، فيصير بمثابة ما لو قال : زيد قائم ثلاث مرات .

* * *

● **امثلة لذلك :**

قوله تعالى : « **قل يا ايها الكافرون . لا اعبد ما تعبدون . ولا انتم عابدون ما اعبد . ولا انا عابد ما عبدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد** »(٥٣) قوله : « **ولا انا عابد ما عبدتم** » توكيد لقوله : « **لا اعبد ما تعبدون** » وقوله : « **ولا أنتم عابدون ما أعبد** » الثانيــة تأكيد لقـوله : « **ولا انتم عابدون ما اعبد** » الأولى . أو الآية الرابعة والخامسة تأكيد للثانية والثالثة من السورة . لما وقع الاهتمام بألا يوافقهم على عبادة الأصنام وبأن الله قد حرمهم أن يدخلوا فى دين الاسلام اكد ذينك نشدة الاهتمام بهما . فهذا تأكيد واحد لكل واحد من الخبرين .

---

(٥٣) الكافرون : ١ ـ ٥ .

« وعلى الجملة : فقد اكد نفى عبادته لاصنامهم بقوله : « **ولا انا عابد ما عبدتم** » واكد نفى عبادتهم لمعبوده بقوله : « **ولا أنتم عابدون ما اعبد** ».

وان حمل ذلك على وقتين مختلفين فلا تاكيد اذن .

ومثال تكرير التاكيد قوله تعالى : « **الهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم** .. »(٥٤) المعنى : الهاكم التكاثر بالاموال والأولاد عن الاستعداد للمعاد . ثم زجرهم عن التكاثر بقوله : « **كلا** » ، ثم هددهم بقوله : « **سوف تعلمون** » ثم اكد الزجر الأول بـ « كلا » الثانية ، ثم اكد التهديد بـ « **سوف تعلمون** » ثم اكد الزجر « **كلا** » **الثالثة ، فزجرهم ثلاث مرات للاهتمام بزجرهم عن ذلك . وهددهم على ذلك مرتين ، للاهتمام بالاستعداد للمعاد .**

ومثل هذا قوله تعالى : « **عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون** »(٥٥) زجرهم بـ « **كلا** » الأولى عن التساؤل والاختلاف . ثم اكد « **كلا** » الأولى بـ « **كلا** » الثانية ، وتهديدهم فيما بينهما بقوله بعد : « **سيعلمون** » ثم اكد هذا التهديد بقوله بعد « **كلا** » الثانية « **سيعلمون** » .

واما تكرير قوله : « **ويل يومئذ للمكذبين** »(٥٦) : (أ) فيجوز ان تكون مكررة على جميع انعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع كذب بقوله : « **انما توعدون لواقع** »(*) .

(ب) ويجوز أن يريد بكل عدة من عذاب الويل من كذب بما بين عدتى كل ويل . واما قوله : « **فباى آلاء ربكما تكذبان** »(٥٧) فيجوز ان **تكون مكررة على جميع انعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع** بينها وبين التى قبلها من نعمة ، ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها . وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية ، وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة .. وهكذا الى آخر السورة . فان

---

(٥٤) التكاثر : ١ ــ ٦ .   (٥٥) النبأ : ١ ــ ٥ .
(٥٦) المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ .. الخ . (*) المرسلات : ٧
(٥٧) الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ .. الخ .

قيل : كيف يكون قوله : « **سنفرغ لكم ايها الثقلان** »(٥٨) نعمة ، وقوله : « **يعرف المجرمون بسيماهم** »(٥٩) نعمة . وكذلك قوله : « **هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون** »(٦٠) وقوله : « **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس** »(٦١) وقوله : « **يطوفون بينها وبين حميم آن** »(٦٢) ؟ ..

قلنا : هذه كلها نعم جسام . لأن الله هدد العباد بها استصلاحا لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان الى حيز الطاعة والايمان والانقياد والاذعان ، فان من حذر من طريق الردى(٦٣) وبين ما فيها من الأذى ، وحث على طرق السلامة الموصلة الى المثوبة والكرامة . كان منعما غاية الانعام ، ومحسنا غاية الاحسان .

ومثل ذلك قوله : « **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** »(٦٤) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام .

واما قوله : « **كل من عليها فان** » فانه تذكير بالموت والفنـــاء للترغيب فى الاقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الاعراض عن دار الفناء.

واما قوله:« **وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين** »(٦٥) فان تقديره عند بعضهم : وان كانوا من قبل انزال القطر عليهم من قبل انزاله لمبلسين : فأكد « **قبل** » الأولى بـ« **قبل** » الثانية .

وهذا لا اهتمام فيه . فانه معلوم أن اليأس من نزول المطر كان

---

(٥٨) الثقلان : الانس والجن ـ والآية من سورة الرحمن : ٣١ .
(٥٩) سيماهم : سواد وجوههم وزرقة عيونهم ـ والآية من سورة الرحمن : ٤١ . (٦٠) الرحمن : ٤٣ .
(٦١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . وقيل هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ، والنحاس : دخان وقيل هو الصفر والنحاس المذاب ـ والآية من سورة الرحمن : ٣٥ .
(٦٢) حميم آن : ماء اشتد حره . والحميم الآنى الذى قد صار كالمهل أى دردى الزيت الأسود ـ والآية من سورة الرحمن : ٤٤ .
(٦٣) الردى : الهلاك . (٦٤) يس : ٥٢ .
(٦٥) لمبلسين : المبلس : الساكت على نفسه ـ والآية من سورة الروم : ٤٩ .

محققا قبل الانزال · فلا حاجة - فى مثل هذا - الى التأكيد · ولهذا قدر آخرون ، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ارسال الرياح ، او من قبل اثارة السحاب لمبلسين ، فعلى هذا لا يكون تكرير ولا تأكيدا ·

* * *

● تكرير قصة موسى :

وقال ابن تيمية : « وثنى فى القرآن قصة موسى مع فرعون لأنهما فى طرفى نقيض ، فى الحق والباطل · فان فرعون فى غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة · وموسى فى غاية الحق والايمان من جهة ان الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبين خلقه واسطة من خلقه · فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكليم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار · فان الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ، ولم يكن أيضا للرسل - من التكليم - ما لموسى · فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص ، وأعظمها اعتبارا لأهل الايمان ولأهل الكفر · ولهذا كان النبى يقص على أمته عامة ليله عن بنى اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل ابى جهل يوم بدر قال : « هذا فرعون هذه الأمة » وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ، ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله ، كما أخبر عنه بقوله : « **ويذرك وآلهتك** »(٦٦) · وان كان عالما بما جاء به موسى ، مستيقنا له ، لكنه كان جاحدا مثبورا · كما أخبر الله بذلك فى قوله : « **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين · وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** »(٦٧) وقال تعالى : « **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا · قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا** »(٦٨) ·

* * *

---

(٦٦) الأعراف : ١٢٧ ·　　　　(٦٧) النمل : ١٣ ، ١٤ ·

(٦٨) بصائر : عبر ، مثبورا : هالكا · أو مصروفا عن الخير - والآية من سورة الاسراء : ١٠١ ، ١٠٢ ·

● راى جوته فى التكرار :

قرأ أديب المانيا الأكبر « جوهان ولفانج جوته » ترجمــة مرجلين ثم ترجمة مراتشى للقرآن فقال : ان القرآن يردد قواعد تعاليم الاســلام ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمدا ﷺ لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتفريع فى ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقــة من الأخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وادخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف. وانما محمد ﷺ نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى اليه أبسط وسيلة واقوم طريق ، وهذا الغرض هو اعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضموا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد ﷺ انما بعث به الى الناس ليقتضيهم القنوت والايمان ، ومن ثمة نراه اذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معــرض التــاريخ والأخبــار ، بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب المثل ومواضع الاعتبار »(٦٩).

***

(٦٩) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ١٨٤ .

ترابط الآيات والسور

أجمع المؤرخون على أن ترتيب الآيات ، ووضع كل كلمة فى القرآن فى موضعها الحالى توقيفى ، أى نزل الأمر به من الله لنبيه فعلمه أصحابه ، وكذلك كثير من السور علم ترتيبها فى حياته ﷺ منه (ﷺ) كالسبع الطوال والحواميم وسور المفصل ، ولهذا لم يكن هنالك أى مجال للاجتهاد فى ترتيب سور القرآن وآياته بعد وفاته(٧٠) .

ولقد كان جهل المستشرقين الفاضح باللغة وأدبها سببا فى عدم ادراكهم الاحكام الفنى والمعنوى بين الآيات بعضها مع بعض ، وهكذا سور القرآن الكريم ، ويبدو ان قراءة بعضهم لتفاسير القرآن محدودة ، كما ان بعضهم أعماه الحقد فرمى القرآن بعدم الترابط بين سور القرآن وكذلك بين آياته ، والعجب أن هؤلاء المستشرقين أجهل الناس بآداب شعرائهم وكتابهم ثم هم يقحمون أنفسهم على أدب القرآن وبلاغته فيقول بعضهم : هنالك عدم ترابط فى الآيات .

١ ـ الترتيب النفسى :

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى انسماء كيف رفعت . والي الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت »(٧١) .

الواقع أن الآيات مترابطة تمام الترابط ، فجميعها سيقت فى معرض البرهان على عظمة الخلاق العليم المنعم المتفضل ، فلا تنافر فى الترتيب المذكور فى الآية (الابل والسماء والجبال والأرض) فهى جميعا مشاهد كونية معروضة لنظر الانسان ، تظهر فيها قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والابداع .

---

(٧٠) القرآن والمستشرقون لرابح لطفى جمعة ص ٧٦ نقلا عن السيوطى والقاضى أبو محمد بن عطية .

(٧١) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ .

بل ان الترتيب المذكور لهو الجدير بالاعجاب ، اذ يمضى مع طبائع النفس والأشياء ٠ فان أول شىء يقترب الى قلب المخاطب فى مهبط الوحى هو الابل تحمله وأمتعته الى بلد ما كان ليبلغه الا بشق النفس « **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين** »(*) ٠ ومنهـا البانه وغذاؤه ٠٠ فاذا كان هنالك شىء يفتتح به الحديث مع العربى يوم ذاك فهو الابل ، ينتقل بها من مكان الى مكان ، وهو فى انتقاله فى تيـه الصحراء لا يعصمه من التيه فيها الا النجم القطبى فى السماء أو لا يرحل للرعى ، أو يعود بأغنامه الا طبقا لتأملاته فى النجوم والأفق ، اتـدل النجوم على الأمطار ؟ ٠٠٠ انه يتحرك فى الاتجاه الذى يعرفه من دلالات النجوم ومواقعها « **وبالنجم هم يهتدون** »(٧٢) ، ثم تأتى فى المرحلـة الثالثة وهى هذه البيئة التى يعيش فيها وهى الأرض ، واقرب شىء منهـا الى قلبه تلك الجبال ٠٠ فقدم الله ذكرها لأنها البيئة الخاصة على الأرض وهى المسكن العام ٠٠ والقرآن يخاطب النفوس ولهذا مضى على الترتيـب الطبعى للأشياء فى نفس المخاطب ٠

ان الذى يمتطى الجمل أو يرى راكبه يستشعر فى ارتفاع سـنام الجمل ، وراكبه فوقه ذلك الاتجاه الى السماء ، وهذا أول ما يتبادر الى الذهن ، ثم ترتد هذه التصورات الى ما هو أقرب الى السماء وأكثـر ارتفاعا ، فذكر الجبال بعدها ٠٠ فضلاً عن أن ذكر الجبال العاليـة يستتبع التساؤل عما تستقر عليه وهو الأرض ، وربما كان البدء بالاستدلال على عظمة الخالق بالجمل ٠٠ لأن فيه من مظاهر عظمة الخالق ورحمتـه معا ما هو أكثر وضوحا ٠ فهو الحيوان الوحيد الذى اذا مشى ينقل يديـه ورجليه دون أن يثنى ركبته ٠٠ وهكذا كان القرآن فى ترتيب آياتـه وكلماته وسوره آية فى الروعة لمن كان له قلب ، أو تذوق فنى وبلاغى ٠

* * *

٢ ـ الأهلة واتيان البيوت :

ويقول المستشرقون فى قوله تعالى : « **يسألونك عن الأهلة ، قل هى**

(*) النحل : ٨٠ ٠ (٧٢) النحل : ١٦ ٠

مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون»(٧٣)٠
قالوا : أى رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم اتيان البيوت من أبوبها ؟

وهذا اعتراض الجاهلين بأسباب النزول ، فالآية نزلت فى اجابة عن سؤالين :

الأول : هو ما يروى عن بعض الصحابة قالوا : يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، لا يكون على حالة واحدة كالشمس ؟ فنزلت الآية « **يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج** » أى انها هكذا لتعرفكم أوقات العبادات : الصلاة والصوم والحج ٠

الثانى : روى أن الأنصار كانوا اذا أحرم الرجل منهم فى الجاهلية لم يدخل بيتا من بابه ، بل كان يدخل من نقب فى ظهره ٠ أو يتخذ سلما يصعد فيه ، فنزل قوله تعالى : « **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** » ٠

ووجه التناسب واضح بين الكلمات فانه لما ذكر مواقيت الحج ناسب أن يذكر بعض أحكام الحج ، ويبين الصواب فى حكم دخول الحاج بيتا من البيوت ٠٠ وأن المشركين حرموا على أنفسهم ما أحله الله ٠

***

٣ ـ غش النصيحة وخيانة الأمانة :

وفى النساء يقول الله سبحانه : « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** » (٧٤) ٠

---

(٧٣) البقرة : ١٨٩ ٠

(٧٤) الجبت والطاغوت : الأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الله والطاغوت فى أصل اللغة مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، فهو كل ما يطغى الانسان ويضله عن طريق الحق والهدى « **ان الانسان ليطغى ٠ أن رآه استغنى** » (العلق : ٦ ، ٧) ـ والآية من سورة النساء : ٥١ ٠

نزلت هذه الآية وما بعدها فى « كعب بن الأشرف اليهودى » حين قدم الى مكة وشاهد أهلها بعد بدر ـ وقد هزتهم الكارثة ٠٠ أهذه القلة التى مع محمد (ﷺ) تنتصر ذلك الانتصار الرائع المروع على جيش مكة وكان ثلاثة أمثال المسلمين ؟ ٠ أهذه القلة انتصرت لأنها على الحق وقريش على الباطل ؟ ٠ ان الضربات القاسية قد تنزل بالشعب أو الجماعة أو الفرد لتجعله يفىء الى نفسه يسائلها ويحاسبها ويراجعها ، فمن يشأ الله له الهـدى اتضح له الطريق ، ومن شـاء له الضلالة أخذته العزة بالاثم ، أو أوحى اليه أمثاله من الضالين الذين لم يمسهم ما مسه فزينوا له سوء عمله وعقيدته ٠٠ وهكذا فى بدر كان من البعض مراجعة وتساؤل ٠٠ فسألوا « كعب بن الأشرف اليهودى » حين وجدوه بينهم يواسيهم ويحرضهم على الأخذ بثأرهم وغزو النبى ﷺ مرة أخرى وقالوا له : أينا أهدى سبيلا ، نحن أم محمد ؟ فقال لهم : بل أنتم أهدى سبيلا ٠٠ فنزلت الآيات التى أولها ما ذكرناه « **الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** » الآية ٠٠ ثم بعد بيان جزائهم كانت الآية الكريمة « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** »(٧٥) ٠

وقد نزلت هذه الآية ـ كما يقول المفسرون ـ فى شأن عثمان بن طلحة العبدرى ، حاجب الكعبة ، لمـا أخذ منه الرسول مفتاح الكعبة يوم فتح مكة ثم رده عليه ٠ وكان هذا فى العام الثامن للهجرة ٠

قال بعض المستشرقين : لقد كان بين الآيات التى نزلت فى كعب بن الأشرف ، وبين آية « الأمانات والحكم بالعدل » ست سنوات ٠٠ وعابوا ذلك (٧٦) ٠

والواقع أن الترابط بين الآيات قوى ، فانه سبحانه وتعالى لمـا ذكر حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال فى الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين الى طريق

---

(٧٥) النساء : ٥٨

(٧٦) القرآن والمستشرقون ، ص ٧٠ ـ ٧١ ٠

السعادة بطاعة الله ورسوله ، وأداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس(٧٧) .

ثم ان ما فعله كعب بن الأشرف من قول الزور ، فقد استنصحه المشركون فلم يكن أمينا ، وحكموه فيما بينهم وبين النبى محمد عليه الصلاة والسلام فلم يحكم بالعدل .. وهذا هو وجه الارتباط الطبعى بين الآية التى سجلت عليه موقفه غير الأمين وغير العادل .. وبين آية الأمانات والحكم بالعدل . لا ينكر هذا الا حقود أو غبى .

***

٤ ـ الأخبار الاعتراضية :

ان أبلغ أساليب الاعلان ـ فى فن الاعلان الحديث ـ هو أن يقطع الحديث الاذاعى أو التلفازى ليعلن عن سلعة أو مزاد بيع ـ ثم تكمل نشرة الأخبار السياسية بعد الاعلان ، فهذا مما يجعل المعلن عنه أكثر رسوخا فى الذهن ، مما لو كان الاعلان فى نشرة الاعلانات .

وهذا ما لم يدركه « لامانس » ، فأخذ يتساءل عن وجه الترابط بين الآيات الواردة فى قوله تعالى لنبيه « **لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه**»(٧٨) وبين باقى آيات سورة القيامة التى تتناول موضوع يوم القيامة قبلها وبعدها .

ففى ثنايا مشاهد القيامة فى السورة تعترض هذه الآيات الأربع تحتوى توجيها خاصا للرسول ﷺ ، وتعليما له فى شأن تلقى هذا القرآن، ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها ، اذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى اليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه الى استذكار الوحى فقرة فقرة فى أثناء تلقيه ، وتحريك لسانه به ، ليستوثق من حفظه ، فجاءه هذا التعليم « **لا تحرك به لسانك لتعجل به** » **الخ** ، ليطمئنه الى أن أمر هذا الوحى وحفظ هذا

---

(٧٧) صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ٢٨٣/١

(٧٨) القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

القرآن وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول الى صاحبه ، ودوره ﷺ انما هو التلقى والبلاغ ، فليطمئن بالا ، وليتلق الوحى كاملا ، فيجده فى صدره منقوشا ثابتا .. وهكذا كان .. فأما هذا التعليم فقد ثبت فى موضعه حيث نزل ، أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان ، ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت فى صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب ودلالة اثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله فى أى اتجاه ، وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التى أوحى بها الى الرسول ﷺ لم يخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة ، فهو الحق والصدق والتحرج والوقار .

وبالاضافة الى هذا ، فان الايحاء الذى تتركه فى النفس هذه الآيات هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن ، وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ، واسناده اليه سبحانه وتعالى بكليته ، ليس للرسول ﷺ من أمره الا حمله وتبليغه ، ثم لهفة الرسول ﷺ وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى اليه ، وأخذه مأخذ الجد الخالص ، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعوه الى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية ، وكلمة كلمة ، يستوثق منها أن شيئا لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيما بعد ، وتسجيل هذا الحادث فى القرآن المتلو له قيمته فى تعميق هذه الايحاءات التى ذكرناها(٧٩) .

وفضلا عن هذا كله فان القرآن لما كان كتاب البعث للنفوس والمجتمعات الميتة يحييها الله به « **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** »(٨٠) ، كان وضعه وسط أخبار بعث الموتى من القبور يوم القيامة بمثابة واسطة العقد ، يجمعها مع باقى العقد معنى واحد ، هو هنا معنى البعث والاحياء للموتى ـ موتى الأجسام وموتى الروح والقلوب ـ وتنفرد واسطة العقد

---

(٧٩) فى ظلال القرآن : ص ٣٧٦٧ ، ٣٧٧٠ ط . الشروق .
(٨٠) الأنعام : ١٢٢ .

بأمتياز آخر له قيمة اغلى واعلى ، لاختلاف جوهرها وامتيازه ، وهـذا هو ما يتمثل فى سمو حياة الروح والقلب على حياة الجسد « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون** »(٨١) ، وهذه اشارات تشرق بها القلوب المؤمنة ، وتغرب عن المستشرقين ، « **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** »(٨٢) .

* * *

---

(٨١) العنكبوت : ٤٣ .

(٨٢) النور : ٤٠ .

شبهات المستر فرانك فوستر

● تعريف بـ « فوستر » :

المستر فرانك فوستر كاتب أمريكى الف كتابه « تاريخ حياة محمد »، وقد عرض وجهة نظره تحمل طابع الشخص الذى يكتب عن خصم لدينه . فلا يعبأ بالحق وانما يلقى الكلام على عواهنه(*) وبالرغم من انه يشترك مع غيره فى الشبهات غير أننا افردناه بالذكر لأنه يعرض هذه الشبهات بأدلة خاصة أو فى قالب خاص به فآثرنا نقل شبهاته والرد عليها بايجاز تاركين التفصيل الى الجزء الثانى عند الرد على « سفارى » واليك هذه النقاط ورأينا فيها :

١ ـ تاريخ المولد النبوى :

قال فوستر : « قبل ألف وخمسمائة سنة ظهر فى مكة رجل اسمه محمد ادعى النبوة ، وخطب الناس فى المسجد فأنكروا عليه قوله » .

والقارىء يرى فى قالته هذه مدى استخفاف المستشرقين بالحقائق التاريخية وافتقارهم الأمانة العلمية . فالكاتب بل نحن الآن فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى . وهو يقول عن بعثة الرسول ﷺ انها كانت قبل (١٥٠٠ سنة) ، ويقول : انه خطب الناس فى المسجد ، ولم يكن هنالك خطبة . بل كانت الكعبة قائمة وحولها فراغ . ولم يبن المسجد الحرام حول الكعبة الا فى الاسلام .

٢ ـ انكار أن النبى أمى :

قال فى (ص ٣٥٢) « لم يكن محمد أميا ، لأنه كان فى حاجة الى ان يكرر قراءة كتابه احيانا ليستظهره ويستوثق من حفظه » .

والجـواب :

أن القراءة والكتابة لا تعطى المستشرقين حاجتهم من الايحاء بأن

(*) لم يبال اصاب أم اخطأ .

محمدا ﷺ قارىء كاتب الف كتابه ، لأن عيسى وموسى كانا يقرآن ولم يكذبهما احد فى دعواهما تلقى التوراة والانجيل من السماء .. وهذا هو بيت القصيد من ترويج المستشرقين القول بأن محمدا ﷺ كان قارئا كاتبا .. اما دعوى « فوستر » فباطلة ، لأن الحفظ لا يحتاج الى أن يكون النبى كاتبا ما دام للنبى كتاب يكتبون له القرآن فور نزوله يسمون فى التاريخ « كتاب الوحى » . وما دام الوحى ينزل عليه يصحح له القرآن ويقدم له التفسيرات والتوضيحات اللازمة .

* * *

٣ ـ ابتكار النثر الأدبى :

زعم فوستر « ان تأثير القرآن فى العرب راجع الى ابتكار محمد ﷺ لفن النثر الأدبى الذى صاغ به القرآن » .

ونجيب : بأن النثر الأدبى كان موجودا قبله بقرون ، ولكن الفرق بينه وبين أسلوب القرآن هو الفرق بين الأمر الممكن والأمر المعجز . فاعجاز القرآن الدال على أنه لا يمكن الا أن يكون وحيا من عند الله هو الذى فرض على الأحرار من العرب أن يؤمنوا به .

* * *

٤ ـ انكار الجن :

اتهم فوستر القرآن والرسول بالتخريف لذكرهما الجن . ونحن لم نر الجن .

والجـواب :

ان جهلنا بالشىء ليس دليلا على عدم وجوده ، بدليل ما يكشف عنه العلم يوميا من الأمور المجهولة . ثم اننا ليس لدينا دليل على أن العالم ليس فيه الا العوالم التى تقع تحت الحس مباشرة . فانكار الأمور الغيبية لمجرد عجزنا عن معرفتها خرق وحمق .

* * *

٥ ـ هل كان النبى مشركا قبل الاسلام ؟

هكذا زعم فوستر · وزعم أن النبى تعلم التوحيد من أهل الكتاب !

الجـواب :

دعوى أن محمدا ﷺ كان مشركا فى الجاهلية دعوى بلا دليـل الا الظن · وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، والمعروف عند المؤرخين الذين رووا التاريخ بأسانيدهم عن مخالطى الرسول ﷺ انهم قالوا : ان النبى لم يسجد لوثن قط ، ولم يشرب الخمر ، ولم يكن عابثا كأقرانه ولداته (٨٣) قبل البعثة ·

وأما دعوى أنه تعلم التوحيد من الكتابيين(٨٤) فبطلانها ظاهر · لأن التوحيد هو الفطرة وهو الأصل ، والتعدد هو الخارج عن الأصل والزائد عليه ، وما كان مركوزا فى الفطرة لا يحتاج الى التلقى والتعليم ، وانما يحتاج الى تعلم التثليث والوثنية · كما فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(٨٥) ، وهى قضية قررها علم الاجتماع وعلم النفس · كما ان التوحيد هو دين ابراهيم وكان الحنفاء(٨٦) يذهبون اليه ولم يعرف نصارى العرب التوحيد حتى يقول فوستر ان محمدا ﷺ أخذه عنهم ، ففاقد الشىء لا يعطيه ·

* * *

٦ ـ هل فقد النبى صفات النبوة ؟

قال فوستر : « ان قوم محمد كذبوه لأنهم لم يجدوا فيه صفات النبـوة » ·

الجـواب :

ذكر الكاتب نفسه فى تاريخه من صفات النبى عليه الصلاة والسلام أنه كان مثلا عاليا فى البر والرحمة والثبات والصبر وقوة الاحتمـال ،

---

(٨٣) أمثاله فى السن ·
(٨٤) المراد بالكتابيين أو أهل الكتاب : النصارى واليهود ·
(٨٥) يجعلانه مجوسيا ، والمجوسية دين قديم ·
(٨٦) الحنفاء قوم يبحثون عن الدين الحق قبيل مبعث محمد ﷺ ·

مع التواضع والقدرة على الانسلاخ من سلطة البيئة والهوى ٠٠ وهذه كلها صفات النبوة ، فالكذابون لا يصدر عنهم الا مبادىء ساقطة من جنس ما جبلت عليه نفوسهم(٨٧) ، وقد اتى النبى بأكمل المبادىء الخلقية ، واحتمل فى سبيلها كل ضروب(٨٨) الأذى التى لا يمكن ان يحتملها انسان ذو اغراض قريبة المنال ٠

* * *

٧ ـ هل محمد ذو مبادىء اباحية حين يعدد الزوجات ؟

هكذا قال فوستر ، ويكذبه ان محمدا ﷺ لم يترك الناس احرارا فيما يفعلون ويجترحون(٨٩) من الشهوات حتى يقال : انه ذو مبادىء اباحية ، وانما جاء برسالة قيدت الناس فى اشباع الشهوات ٠ فحرمت الخمور بكافة انواعها ٠ وحرمت الزنا بكل صوره وسدت الذرائع اليه(٩٠) ، وقيدت عدد الزوجات الذى كان مباحا اباحة مطلقة حتى كان الرجل يتزوج عشرات ٠٠

ومن عجب : أن موسى عليه السلام كانت شريعته تبيح تعدد الزوجات فلا يعيبه المستشرقون ، بينما يضيقون بمحمد ﷺ وبدينه ، وهو وموسى وكتاباهما من مشكاة واحدة(٩١) ، وقد اعترف شوبنهاور بفضل العقد الشرعى الاسلامى لأكثر من زوجة ، واضطرت فرنسا لاصدار قانون ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ بفرض نفقة شرعية للولد غير الشرعى ، وصدرت قوانين العلاقات الواقعية ، أو « زواج الواقع » أو « الخدانة »(٩٢) ، واصدر رينيه روديير كتابه « زواج الواقع أمام القانون الفرنسى » ونشر عام ١٩٦٠ وهو من اعمال جمعية هنرى كابيتان ويدل على المأساة التى تنشأ عن تقييد الزواج ٠

---

(٨٧) طبعت ٠ (٨٨) صنوف ٠
(٨٩) يقترفون ويفعلون ٠ (٩٠) الأسباب المؤدية ٠
(٩١) مصدر واحد ، وأصل المشكاة الكوة التى لا منفذ لها ٠
(٩٢) الصداقة والمعاشرة الزوجية بدون زواج ٠

ويعترف الرحالة الغربيون بأن تعدد الزوجات بين المسلمين من الوجهة العملية أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة · وليس هذا بغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم ·

وقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينزبرج » و « سترمارك » ، أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان النظام المتبع عند الشعوب المتخلفة هو نظام الزوجة الواحدة ، ويرجع الاقتصار على زوجة واحدة فيها الى تقاليد لا تتصل بالدين ·

وقد قالت السيدة « غوردون » الانجليزية : انها بملاحظتها احوال البلاد الشرقية التى يتعدد فيها الزوجات رات ان هذا التعدد اكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافق فيصعب على النساء الاعتماد على انفسهن فى تحصيل الرزق والأخذ بأسباب العيش ، وهذه ضرورة كبرى يخول معها تعدد الزوجات · وهذا هو ما لاحظه جميع الرحالة الغربيين مثل « جيرالدى نيرفال » و « الليدى موجان » ·

وقد اثبت علم الاحصاء ان النساء غالبا اكثر عددا من الرجال مما يقتضى ان يكون لكل رجل اكثر من زوجة · وبما انه ليس كل رجل قادرا على الزواج · والقادر على الزواج قد لا يستطيع الزواج باكثر من واحدة فان اباحة التعدد للقادر عليه ضرورة تفرضها العدالة الاجتماعية حتى لا تحرم المراة من حقها فى الاستمتاع بالحياة ·

(أ) ففى الحروب يكون القتلى من الرجال اكثر من النساء بنسبة ١ : ٤ ·

(ب) وحوادث المصانع والصراع على الرزق يكون ضحاياها من الرجال اكثر من النساء ·

(ج) وأمراض الطفولة يموت بسببها ذكور أكثر من الاناث فى المرحلة ما بين ساعة الميلاد وأوائل مراحل الشباب فتزيد بهذا نسبة الاناث على نسبة الذكور ١٪ ·

(د) وقد نشرت «المختار» فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨ مقالا للأستاذ « سيليج جرينبرج » جاء فيه : « ان مكتب التعداد بالولايات المتحدة يتنبأ بأن النســاء سيرتفع عددهن فى أمريكا بمعدل مليون كل عشر سنوات ، وان الدكتورة « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول : ان لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص المتزايد فى الرجال : اما تعدد الزوجــات • أو ايجاد طريقــة ما لاطالة اعمار الرجال • هذا فضلا عن أن الزوجة قد تصاب بأمــراض تجعلها غير مرضية عند زوجها كأن لا تنجب او لا تطيق الزواج أو تصــير شــوهاء • فطلاقها للزواج بأخرى يضيرها(٩٣) • وقد تسوء المعاشرة لأسباب نفسية أو خلقية أو اقتصادية فيكون الزواج بأخرى وسيلة لاستصلاح الأولى •

والذى يتأمل تعدد الزوجات فى حياة النبى يفاجأ بأنه عليه الصلاة والسلام كان ذا زوجة واحدة فى حياته الأولى حتى الرابعة والخمسين من عمره ، ثم أخذ يعدد الزوجات فى الفترة ما بين السنة الثالثة للهجرة والثامنـــة • وهى الفترة التى تواصـلت فيها الحروب بين المسـلمين والمشركين • وفيها اختل التوازن العددى بين الذكور والاناث فى مجتمع المسلمين بالمدينة • وأصبح من الواجب رعاية الأرامل واليتامى الذين فقدوا عائليهم • فالتعدد اذن واجب اجتماعى على الرجال يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا تجدنه كالأرامل والمطلقات •

والعجيب أن انكار تعدد الزوجات والدعوة الى تفضيـل العزوبـة والتخلص من تبعات الزواج اكتفاء بالمتعة الخبيثة ـ التى وفرتها مدنية العصر ـ قد تأثر بها المجتمع المسلم فى ظل دعاية الاحتلال وحكمه لمصر ـ دون المجتمع المسيحى فى مصر • اذ تدل الاحصائيات على أن نسـبة المتزوجات من النساء المسلمات فى مصر قد هبطت من ٩١٥ فى الألف سنة ١٩٠٧ الى ٨٨٥ فى الألف عام ١٩٢٧ بينما ارتفعت نسـبة المتزوجات من النساء المسيحيات من ٨٩٤ فى الألف عام ١٩٠٧ الى ٩٠٥ فى الألف عام ١٩٢٧ • وكانت النتيجة ان هبطت نسـبة المسلمين من السكان من

---

(٩٣) يضير : يضر •

٨ر٩١٪ فى سنة ١٩٠٧ الى ٢ر٩١٪ فى سنة ١٩٢٧ · وفى سنة ١٩٧٢ عقد البابا الأنبا شنودة مجتمعا بمصر وأصدر منشورا بقرارات المجتمع وقد جاء فيه ان المسيحيين بمصر قد تضاعف عددهم فبلغوا ثمانية ملايين وهـذا يقتضى أن يكون تمثيلهم فى الوزارة بثمانية وزراء تبعا لنسبتهم العددية طبقا لوصايا الكنيسة بكثرة الانجاب وتشجيع الزواج وترك العزوبة خلافا لسياستهم فى ترويج الدعوة الى تحديد النسل بين المسلمين والدعوة الى منع تعدد الزوجات · بينما نسبة المسيحيين الى المسلمين فى الواقع ٦½٪ وانما هى اشاعة كاذبة بكثرة عددهم ·

وقد أصبح التخلص من الرهبنة فى المسيحية والدعوة الى اباحة زواج القساوسة بل والرهبان أمرا صكت قوة الدعوة اليه الآذان ، بناء على أن المصلحة الاجتماعية والسياسية للكنيسة هى فى التكاثر والثروة البشرية · وعلى أن الانجيل ليس فيه نص صريح على تحـريم أو كراهية الزواج أو التعدد ·

● **ماذا ينجم(٩٤) عن تحريم تعدد الزوجات ؟**

تندفع المرأة التى لا زوج لها ـ لاستحالة وجود زوج واحد لكل امرأة النساء بسبب كثرتهن ـ الى الدعارة · وستتفشى ظاهرة العوانس(٩٥) بين النساء فى المجتمع مع ما يصحب هذه الظاهرة من عقد نفسية تنجم عنها أخطار اجتماعية جمة(٩٦) ·

* * *

٨ ـ التلقى عن الكتابيين :

قال مستر فوستر : «ان محمدا قد تلقف دينه من أفواه الكتابيين الذين كانوا فى الجزيرة ، وهو لم يقابل الا السذج الأميين من اليهود والنصارى فلم يحصل منهم الا ما هم أهل للافضاء به من الأوهام حتى عجزوا عن تفهيمه حقيقة المسيحية » ·

---

(٩٤) ينجم : ينشأ ·

(٩٥) العانس : الفتاة التى لم تتزوج حتى أمست عجوزا ·

(٩٦) كثيرة ·

الجـواب :

ان النجاح العظيم للنبى ﷺ لا يتصور أن يكون قائما على تصيد معلومات ناقصة وخرافية من عوام الكتابيين • والا فقد ادعى النبوة آخرون افتضـح أمر كذبهم ، وبعضهم كان يجمـع الى أدق ضروب الختل(٩٧) ثقـافة علمية عالية •

ثم ان نجاح الدعوات الدينية لا يكفى للوصـول اليه اقامة الدليل القاطع على حقائقها فحسب ، ولكن يجب أن يصحب هذا سمو خلقى عظيم وتأثير روحانى كبير • وهكذا كان لمحمد ﷺ النصيب الأوفى من السمو والتأثير • والله لا يؤيد بالنجاح متنبئا(٩٨) كذابا والا بطـلت حجته ـ سبحانه ـ على عباده الذين يخالفون تعاليمه •

على ان التوراة والانجيل لمـا يكونا منشورين بحيث يستطيع عامة اليهود والنصارى أن يحفظوا منهما شـيئا • فان أول طبعة عربية للعهد القديم قد نشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أى بعد موت محمد ﷺ بمـا يقرب من ثلاثة قرون • بينما أول طبعة رسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين كما قال بودلى • ثم قال : وما روى عن أن ورقة ابن نوفل كان لديه ترجمة للتوراة لا يكفى لاقامة شبهة تلقى محمد ﷺ عنها شيئا • لأن ورقة توفى قبل أن يبدأ محمد عليه الصلاة والسلام فى تدوين ما أوحى به جبريل اليه ••

••• ثم اننا الآن بعـد عصر الطباعة لا نرى النصـارى واليهود يحفظون شـيئا من كتابهم المقدس لأن أسلوبه لا يستساغ حفظه •

* * *

٩ ـ التكرار والاقناع :

قال فى كتابه « تاريخ حياة محمد » : ان سورة التكاثر لا مفهوم لها ، وفيها تكرار يستعين به محمد على الاقناع لفقده الحجة المنطقية • وهكذا الأمر فى قولـه تعـالى : « **ولقد ذرأنـا لجهنم كثيرا من الجن والانس ،**

---

(٩٧) الختل والختلان : الخداع •
(٩٨) مدعى النبوة •

لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »(٩٩) ٠

وشبهة الكاتب تدل على جهله بطبيعة أساليب اللغة العربية وبعلم النفس ايضا ، وعن جهله أسباب نزول القرآن ٠ فقد نزلت سورة التكاثر للرد على بنى عبد مناف وبنى سهم حين تباهوا بالكثرة ، فذهبوا الى المقابر يذكرون مفاخر من ماتوا ودفنوا بها من كبار القوم ، كما يذكرون مفاخر الكثرة الباقية فى عالم الأحياء ، فنزلت الآية « **ألهاكم التكاثر ٠ حتى زرتم المقابر** »(١٠٠) ثم ذكر المصير الذى يجب أن يهتموا به ، وهو الوقاية من النار بالتحرز عن الأسباب التى تؤدى اليها ، والقيام بواجب الشكر لله على آلائه ونعيمه ونعمه التى تفضل بها عليهم فقال : « **كلا سوف تعلمون ٠ ثم كلا سوف تعلمون ٠ كلا لو تعلمون علم اليقين ٠ لترون الجحيم ٠ ثم لترونها عين اليقين ٠ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** »(١٠١) ٠

وتكرار « **كلا سوف تعلمون** » للتهويل والتأكيد ، فله دلالته النفسية واللغوية(١٠٢) ٠

وأما قوله تعالى « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** »(١٠٣) الآية ، فغاية فى القوة وحسن الأداء ، فهى تهديد يوقظ الله به الانسانية المتحجرة فى حنايا صدور السامعين ، وبخاصة العرب الذين يرهبون الجن ، ويرهبون الكثرة المتكاثرة من الناس ، فليبزل الرهبة من الله فى قلوب البدو والحضر معا ٠٠ ذكر قهره سبحانه لمن هم موضع رهبتهم فقال : « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** » فان القادر على الأخذ بنواصى كثير من الجن والكثرة من الناس قادر على من دونهم ٠ وبهذا المنطق يقدم الدليل الحسى والعقلى والوجدانى لمن تحدثه نفسه بمعصية الله ـ على أنه مأخوذ بقهر الله ٠

* * *

(٩٩) يفقه : يفهم ويعى ، والأنعام : حيوان البقر والابل والغنم ـ والآية من سورة الأعراف : ١٧٩ ٠

(١٠٠) التكاثر : ١ ، ٢ ٠ (١٠١) التكاثر : ٣ ـ ٨

(١٠٢) انظر مقال القاسمى فى التكرار بهذا الكتاب ٠

(١٠٣) الأعراف : ١٧٩ ٠

محمد خاتم المرسلين

● انكار أن النبى خاتم المرسلين :

انكر بعض المستشرقين أن سيدنا محمدا ﷺ خاتم المرسلين وفسروا قوله تعالى : « **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** »(١٠٤) بأن الخاتم تعبير مجازى يراد به الحلية فهو أفضلهم وليس آخرهم . وقد أجاب عن هذا العلامة « **خ . كمال الدين** » فى الفصل الثانى من كتابه « المثل الأعلى فى الأنبياء » فقال ما خلاصته :

١ ـ الانسان مركب من جسم وروح . وقد تكفل الله تعالى بغذاء الأرواح كما تكفل بغذاء الأبدان . واذا كان الخالق جل وعلا لم يفرق بين الناس فى توزيع الأرزاق التى تتطلبها الأبدان . فهل يعقل أن يفرق فى الأرزاق التى تتطلبها الأرواح ؟ واذا كانت دعوة عيسى عليه السلام لم تصل الى أقطار العالم الأربعة . فهل يتصور العقل أن الله تعالى الذى يرزق الناس جميعا يضن بالغذاء الروحى على ملايين البشر الذين لم تبلغهم دعوة المسيح ؟ كلا . بل المعقول انه جلت حكمته ، يرسل رسلا آخرين ليبلغوا رسالاته للناس ، فبعث محمدا ﷺ وحفظ كتابه من التحريف حتى أصبح فى امكان كل طالب أن يجده مشروحا مفسرا مشفوعا بالصور التطبيقية له من أعمال الرسول وصحابته .

٢ ـ كل ما وصل للناس عن المرسلين انما كان ينتقل بطريق الأفواه والسماع ، مما أفسح المجال للتحريف والتبديل فيها ، وكانت النتيجة أن الأجيال المتتابعة تلقت دينا جديدا يختلف كل الاختلاف عما جاء به الرسل ، وأستطيع أن أقرر أن المسيحية بالذات دين يختلف عما جاء به عيسى عليه السلام . وقد أدى النزر اليسير الذى دونه أصحاب الرسل الى مشكلة أخرى . وهى أن الديانات القديمة أصبحت لا تفى بمطالب الزمن . مما اضطر الناس الى الاجتهاد فى كثير من الشئون الحيوية ،

---

(١٠٤) الأحزاب : ٤٠ .

ولعل الدين المسيحى خير شاهد على هـذه القضية . فاننا اذا صرفنا النظر عن الجانب الغامض من العقائد التى لا يقرها العقل فى هـذا الدين ، ألفينا(١٠٥) أن المواعظ التى تنسب الى عيسى عليه السلام وأقواله الأخرى ، لا تفى بالغرض ، ولا تشفى الغليل ، وخلاصة ما أثر عنـه ـ حسـبما دونه أصحابه ـ أن المسيحية دين يقوم على المحبة والشفقة . وعلى مبادىء مثالية لا يمكن تطبيقها من الناحية العملية . وليس هذا كل ما فى الأمر كما يقول « أرنولد بنت » ـ بحق ، فمبادىء المسيحية لا تناسب الا حياة الرهبان الذين يعيشون بمعزل عن الناس ، ولا تتفق مع مقتضيات الحياة الاجتماعية والوطنية والدولية . وفوق ذلك يوجد ضرب من التناقض بين الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام كالتناقض الصارخ فى استعمال السيف ، وما سجل من افعاله التى لا تبين المراد من أقواله . وأساس العلة فى ذلك كله أن تلاميذه وغيرهم من معاصريه لم يدونوا لنا سيرته كاملة ، وما حدث فى حق عيسى عليه السلام حدث فى حق غيره من الأنبياء ، اذا استثنينا محمدا عليه الصلاة والسلام الذى ـ دون مغالاة ـ أعرفه من سيرته المفصلة أكثر مما أعرف أبوى فسجل أقواله وأفعاله كامل غير منقوص . وسنته القولية والفعلية يتمم بعضها بعضا ، وكأن كل مطلب من المطالب الروحية قد قدر وعمل حسابه . ولا يسعنا ازاء قلة ما أثر عن الأنبياء الا أن نقول : انه لولا محمد ﷺ ما استطعنـا أن نفهم قدر النبوة . اذ لو كانت وظيفة النبى مقصورة على القول دون العمل .. لمـا كان هناك معنى للرسالة الالهية ، لأننا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس نفسها ممن لم يدع أنه مرسل من عند الله ، فالأقوال اذا لم تقرن بالأفعال لا يمكن أن تكون باعثا على الهداية » .

أقول : وما قاله كمال الدين حق ، غير اننا لا نسلم له القول بأننا كنا نستطيع ان نتعلم هذه الدروس الموحى بها من السماء من غير المسلمين.

٣ ـ كما أن عيسى عليه السلام ـ آخر أنبياء بنى اسرائيل ـ ولم تتهيأ له الأسباب لظهور مقتضيات الأخلاق جميعا كما تهيأت للنبى ﷺ .

---

(١٠٥) اى وجدنا .

فالمسيح لم يتزوج حتى نقتدى به فى حياتنا الزوجية . ولم يتول سياسة البشر وحكم الناس حتى نتأسى به فى هذا . فكان محمد رسول الله هو النموذج المتكامل الذى يحتاج اليه البشر . وكان القرآن الكريم بيانا وافيا يحتوى على ما يفى مطالب البشرية الخلقية والروحية فنزول وحى جديد - بعد محمد ﷺ - والحالة هذه - يعد ضربا من التكرار والعبث .

٤ - وأخيرا ان الدين يأتى ليمهد الطريق أمام الانسان للترقى من البشرية الى عالم القدس . والسمو من مرتبة الحيوان الى مرتبة الروحانية. واذا تقرر ذلك سهل علينا أن نفهم نهائيا الوحى الالهى . اذ المعروف أن هناك طرقا عدة بين المرتبتين ، منها ما هو طويل ، ومنها ما هو معوج . ولكن لا شك أن منها ما يعد أقصرها جميعا . ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين . وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على الدين الذى جاء به « الصراط المستقيم » ومعناه الحرفى : الطريق المستقيم .

فاذن : علم أن الطريق الذى يرسمه الوحى الالهى لهداية البشر لا بد أن يكون أقصر الطرق ، وأن الطريق المستقيم لا يمكن أن يوجد ما هو أفضل منه » .

أقول : اذا علم ذلك : كان القول بأن نبيا ما ... بعثه الله صراطا مستقيما قضية يؤيدها العقل ، ومن ثم تكون شريعة هذا النبى هى آخر الشرائع . فأنت ترى أن المسألة كلها انما تدور حول اعتبار واحد . وهو هل الطريق الذى يدعو اليه هذا النبى هو الطريق المستقيم ؟ وهذا يتضمن التسليم بأنه آخر الأنبياء . وفى هذا أستطيع أن أقول - وأنا مطمئن - : ان محمدا ﷺ هو آخر الأنبياء ، وهو يقف فى المقدمة . يشرف بنظره على كل القرون ، وهو نبى الزمان كله ، ونبى كافة الشعوب على اختلاف درجاتها ثقافة وعلما . وأكبر دليل على ذلك أن العالم الآن مقبل على الأخذ بالمبادىء الحقة التى نادى بها فى زمانه . فلتقل الدكتورة « بيزانت » ما شاءت أن تقول به ، من أن الوقت قد حان لظهور « نجم الشرق » . فان أنبياء الشرق لم يكونوا عالة قط على من سواهم فى الأمور الدينية ،

ولم يكونوا قط تحت وصاية غيرهم فى التربيـة الدينية • فهل للدكتورة « بيزانت » أن تدلنا على بعض الحقائق الجديدة التى سيأتى بها الذى هـو فى حماها مما لم يأت به الأوائل ؟ ••

٥ ـ ولقد كان غرض الديانات السابقة على الاسلام هو تخليص البشر من الخطيئة واسترضاء الله بالقرابين البشرية وغيرها ، أو بالوسـطاء ، ولم يكن عيسى عليه السلام هو ابن الله الوحيد الذى جاء ليغسـل بدمه خطايا البشر • وقد حوكم لأنه اتهم باثارة الفتن والقلاقل فكم من شـخص أعدم بهذه التهمة ، فليرفع الدكتور « زويمر » عقيرته ما شاء أن يرفع • زاعما أن المسيحية انفردت بتقديم الدليل على هذا النوع الغريب من الحب الالهى • فانه انما يدل على جهله • وأكبر الظن أنه يكتم الحق •• ويعرف أن الوثنية كان فيها عدة ممن زعموهم أبناء الله ، أرسلهم الأب ليقدموا حياتهم فداء للانسانية • وكان باخوس واحدا منهم ، وهو أول من قال : انه ألف العالم وباؤه ، وأنه مخلص البشرية ، وقد وضعته أم عذراء فى ٢٥ ديسمبر ، وضحى بحياته فى يوم الجمعة السابق على أحد الفصـح ، وقام فى ذلك اليوم المشهود • وقد نقل القديس بولس ، ومن جاء بعـده قصة الآلام ، بحذافيرها(١٠٦) عن هؤلاء •

ومن اعجاز القرآن أن كشف عن هذه الحقيقة التاريخية الثابتة فقال عن النصارى : « **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون** »(١٠٧) •

وكان الاعتقاد السائد ـ خطأ ـ أن الانسان ولد متلبسا بالخطيئة ، وأن الاله المتجسد هو الذى يكفرها بيديه • فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم قرر : أن الدين لا يقصد الى مجرد انتشال الانسان من الوهدة ، واقالته من العثرة ، وانما يريد به السمو الى الذروة » •

ولقد شبع الناس من كباش الفداء تلك • والذى تتقبله عقولهم هـو

---

(١٠٦) بتمامها وأصل الحذفور كعصفور : الجانب

(١٠٧) يحاكون ويشابهون ـ والآية من سورة التوبة : ٣٠ •

ان يكون ارتقاء الانسان من الحيوانية الى الروحانية هو المبدأ الأسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء ، وقد كانت رسالة محمد ﷺ تفصيلا لوسائل هذا الارتقاء الذى هو خاتمة الغايات النبيلة التى تستهدفها الرسالات وليس وراءها وراء .

وهذا الارتقاء هو التسامى بالنفس الانسانية بضبط الغرائز ، والتخلق بالصفات الكريمة التى وصف الله بها نفسه ودعانا الى التحلى بها نبيه محمد ﷺ بصورة مشرقة ليست كالصورة التى رسمها لله رجال الأديان السابقة ، فليس الها غاضبا قاسيا كاله اليهود ، وليس الها أبله يقتل أفضل أبنائه ليخلص بدمه غيره من أبنائه الأشرار ، وانما الله هو الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

« واذا صرفنا النظر عن جميع الاعتبارات المتعلقة بعدم صحة الكتب المقدسة ما عدا القرآن ، وآمنا بأنها صحيحة ـ لم نجد فيها كبير فائدة . اذ أنها لا تدلنا على جميع الصفات الالهية التى نقرؤها فى كتاب الكون . واذا كان القرآن هو الكتاب الزاخر بذكر الله وصفاته ، والدال على كيفية التخلق بأخلاقه . أفلا يكون هو الكتاب الوحيد الذى يحقق الغرض من الوحى الالهى »(١٠٨) ويستغنى به عما سواه ؟ ..

ولأول مرة فى التاريخ يلغى الاسلام الوساطة بين العبد وربه ، لأن الاعتقاد فى الوساطة يضعف الشعور بالمسئولية ، ويقضى على روح الاعتماد على النفس ، وهو اثر من آثار الوثنية لم يخل منه دين سماوى فى أخريات أيامه ، رجاء الاسلام ليخلص البشرية منه « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان** »(١٠٩) . « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** »(١١٠) . وهذا أعظم مظهر لتحرير البشر من العبودية لغير الله الواحد الأحد .

٦ ـ الناس يتطلعون الى دين واحد ، وهذا الدين العالمى لا بد أن

---

(١٠٨) المثل الأعلى فى الأنبياء ، خ . كمال الدين ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١٣٩ .

(١٠٩) البقرة : ١٨٦ .
(١١٠) العنكبوت : ٦٩ .

يتضمن الاجابة عن كل الأسئلة المطروحة فى المسائل المختلف عليها بين كافة الديانات ٠٠ والاسلام وحده هو الذى تعرض للاجابة عن كل مشكلة برأى مقنع وحاسم ٠ وخلاف غيره ، فالمسيحية لم يتعرض كتابها المقدس لمشكلة تناسخ الأرواح بكلمة ٠ فهل تصلح مع هذا أن تكون ديانة عالمية ؟

والدين العالمى شرطه العمل على شجب الخلاف حول الرسل ، والاسلام ـ وحده ـ هو الذى جاء بهذا « **والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** »(١١١) ٠ والدين العالمى يكفل للمرء حاجته المادية والروحية باعتدال ، والاسلام ـ دون غيره ـ هو الذى وفرت مبادئه المبدأ الفارسى القائل : أيديهم فى الدنيا وقلوبهم مع الله (١١٢) ٠

٧ ـ وأضاف الأستاذ زكريا هاشم الى ذلك:أن جميع الدعوات والنبوات قبل الاسلام قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الانسانية العامة ، وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير ٠

فنبوة بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ٠ تنعزل بحاضرها وعموم مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من اوزاره ، والتكفير عن سيئاته ، والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ٠ ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل ، ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ، ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر فى عبادة اله واحد هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها » ٠

---

(١١١) البقرة : ٢٨٥ ٠

(١١٢) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ١٧٦ ٠

فلما جاءت نبوة التكليف صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوات، لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول . وتحضره آيات الله لقوم يعقلون « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** »(١١٣) .

وان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون ـ قد اختتم سلطان الأحبار والقادة ، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات » ، والمنجمين الذين كانوا فى مقدمة جيوش بنى اسرائيل كما فى سفر الأيام الأول ، والعرافين الذين كان قومهم يختبرونهم بمعرفة الغيب كصموئيل(١١٤) .

« فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين ، أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين : « **قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** »(١١٥) ... و « **قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين** .. »(١١٦) .

« فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم ، أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف ان يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم ان يتبين من يسأل ، وهو مسئول عما يفعل « **وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(١١٧) . **فاذا** سمى ختام النبوة باسم الحق فى تاريخ الانسان ، فاسم الحق انه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة .. قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى **بسبعة قرون** .

* * *

---

(١١٣) البقرة : ١٦٤

(١١٤) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ٦٤ ، ٦٦

(١١٥) النساء : ٩٧ (١١٦) سبأ : ٣٢ (١١٧) النحل : ٤٣

● دعوى استمرار النبوات :

ومن عبث الجهالة . أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار في عصر العلم . فلا يفهم منه الا انه حكر الأثرة يغلقه النبى على من بعده .

ان الحكر ـ الذى يزعمه خصوم الاسلام كالبهائيين ـ صنيع لا يصنعه نبى أمر اتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طيعة منقادة بين يديه ، فان جاز فى حقه هذا الحكر المغتصب . فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله ، وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته عليه ؟(١١٨) .

ان العقل البشرى بلغ تطوره منذ اربعة عشر قرنا . عند مبعث رسول الله ﷺ ، وان تفتح العقلية الأوروبية بأقصى ما أمكن الفلاسفة أن يدركوه الآن ليشير الى أهداف العلم وغاياته فلا تخرج عن المبادىء التى جاء بها محمد ﷺ ، ولهذا كانت رسالته خاتمة الرسالات من وجهين :

الوجه الأول : أنها عامة فى الزمن تغطى حاجته المستقبلة ، اذ أننا لم نجد فى عصرنا خيرا من الاسلام . فكل متنبىء الآن كاذب ، لأنه أعجز عن أن يأتينا بجديد خير مما اتانا به محمد ﷺ أو مثله .

والوجه الثانى : فى أنها كانت طورا لما سبقها من الرسالات يشبه الذروة فكانت خاتمة للرسالات السابقة .

لقد وضع الاسلام أصولا عامة يتجه اليها فلاسفة العالم الآن . وبهذا كان الاسلام هو التعبير عن حاجة الانسانية ، والملتقى العالمى الذى تتجه اليه البشرية دون حاجة الى رسول أو رسالة غير الاسلام ورسوله ، وهذه الأصول كما قال المرحوم محمد فريد وجدى هى :

١ ـ زوال آثار الوراثات الدينية والتحرر العصرى منها .

٢ ـ انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

٣ ـ قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

---

(١١٨) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ١١ ـ ١٢

٤ ـ قبول كل عقيدة تسلم من النقد ، وتنهض بها حجة .

٥ ـ الميل الى ايجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم والتى تجعل منها شيعا .

٦ ـ الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، دون اعتداد برأى طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .. وهذه أمور تنبىء بأن المستقبل للاسلام(١١٩) .

* * *

(١١٩) مجلة الأزهر ـ المجلد ٨ ص ١٤٩

خاتمة

لقد أمطنا اللثام فى الصفحات السابقة عن أغراض المستشرقين ، واستبان لنا ان الاستشراق عمل صليبى هو الوجه الآخر للحروب الصليبية .. يمكن أن نسميها الحرب النفسية ، لأنها تحمل من أغراض الحرب النفسية تمزيق الوحدة القومية حول مفاهيم يستوى عند العدو أن تكون تافهــة أو ذات بال . وتحمل من أغراض الحرب النفسية أيضا تشكيك المسلمين فى استمرار قدرة دينهم على مواجهة الحياة الصاعدة الزاحفة الى الأمام قدما . ويسلمهم هذا الى استشعارهم النقص والتفاهة والعجــز عن مناهضة أعدائهم ، فيقنطون وكما قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » ويفقدون الطريق الى المجــد **« ومن يقنط من رحمــة ربه الا الضالون »**(١) .

وقد رادت الكنيسة هذه الحركة لتستبقى بالعلوم الاسلامية الشرقية دماء المسيحية وهى تحتضر .

ولمــا كان البابا عند المسيحيين ملك جميع الملوك والرؤساء والممالك فى معتقدات المسيحيين فقد انصاع الملوك والرؤساء وكافة الساسة لأمره ، واحتضنوا حركة التبشير والاستشراق ، وما كان لملك ألا ينصاع ، ومن قبله عرف كافة الملوك كيف وقف زميل لهم بين يدى البابا وقد أزاح عن نفسه الصلف الألمانى وتاج الملوك ، واكتسى ثوب المذلة والضراعة ليغفر له البابا الذى غضبت لغضبته رعيته عن بكرة أبيها ، فأمسى عرشه فى مهب الرياح .. وبعد تأب وتمنع أمر البابا أن يجثو الملك عاريا الا من ثياب خشــنة قذرة من الخيش ، حاسر الرأس لا يغادر فناء الكنيسة الى ظل أو كن ان احمرت الشمس أو اكفهر الأفق أو أمطرت السماء أو قسا الزمهرير ، فلمــا قضى الملك الأجل أذن له البابا أن يشرف بلثم قدميه ويديه .

ومع ما للكنيسة من رهبة وسطوة فقد لوحت لهؤلاء بالمكاسب الضخمة

---

(١) الحجر : ٥٦

التى سيظفرون بها ويغنمونها من وراء الاستشراق والتبشير ·· ان هؤلاء المستشرقين والمبشرين سيكونون العيون لهم فى اى بلد حلوا فيه والطابور الخامس · انهم حين يجدون نصارى يؤازرونهم سيهيئونهم لتقبل حماية دول الغرب ويكون شعار « حماية الأقليات » هو الذريعة للغزو المقدس · فان لم يكن للنصارى كيان أو وجود صنع عملاء يتنصرون ·· فان عجزوا صنع عملاء يخدمون باسم الوطنية والتقدم والفكر المتحرر يكونون خلفاء مطيعين · واعوانا للغرب على كبح جماح العامة ·

ورغبا ورهبا انصاع الملوك والساسة فكانت هذه الحركات الضخمة التى ازحنا عنها الستار ، وكانت لهم هذه المفتريات التى فضحنا شطرا منها · ولكن بقى أن نتساءل : أفى الافتراء على الاسلام حتى يمكن للمسيحية من أن تترعرع ـ خدمة للبشرية ، أو قربة الهية ، أم أن فى هذه المهاجمات للاسلام بل وفى التبشير بالمسيحية مخالفة للمسيحية ذاتها ؟

ان الطغيان الرأسمالى غير المشروع هو الآفة الاجتماعية التى تكمن وراء أبراج الكنيسة المسيحية · ووراء القباب الحصينة التى يتترس بها(٢) الآباء المسيحيون · ان هؤلاء الذين يحيون وراء الحصون المنيعة التى تضفى عليها أسماء شتى كالدير والمدرسة والمجمع والكنيسة والمكتبـة ومركز الثقافة وجمعية القديس كذا ·· كل هؤلاء انما ينقضون وراء هذه الحصون تعاليم المسيح · بما يغرقون فيه من متع الحياة التى جاء المسيح ليخلص الروح من أوزارها ، ولقد كشفت ثورات التحرير الفرنسية وغيرها عن طبيعة المبادىء التى تناقض الفطرة ، فكانت عظام الأطفال الرضع المقبورة فى جوار جدران الأديرة دليلا ماديا على أن البشر لا يمكن أن تحيلهم الحبرة والعمائم والطيالس الى ملائكة ـ دليلا على فساد المثـل المسيحى القاتل « الأعزب رجل حالفه الحظ فلم يدهمه قطار الزواج » وعلى فساد فلسفة الرهبنة التى تحرم الزواج ·· وعلى صدق الحقيقة الاسلامية التى تتمثل فى حديث محمد عليه الصلاة والسلام : « ما خلا رجل بامراة الا وكان الشيطان ثالثهما » وفى قوله « ان من سنتى النكاح ومن

---

(٢) يتترس : يتحصن ويحتمى ·

رغب عن سنتى فليس منى » وقوله « شراركم عزابكم » وكأنه يريد أن يقول : رهبانكم . ولقد قالها فى الصورة المهذبة التى تليق بمقامه الكريم : « لا رهبانية فى الاســلام » .

ان هؤلاء الآباء فى عملهم لنشر المسيحية لا يبتغون وجه الله ولا جنة المــأوى ، وانما يريدون باستبقاء الوجود المسيحى أن تبقى لهم الأوقاف والموارد المــالية الضخمة التى للكنائس ، فباسم الدين يعيشون على أنقاض الدين .. لم يدعوا ما لقيصر لقيصر . فهم المهيمنون على كل شئون القيصر .. يقدم لهم الولاء والعطاء ليباركوا له ما لعنه المسيح .. ملك الدنيا .. وطغيان المستبد الغاشم والمستعمر المعتدى .. انهم يباركونه ويتمتمون أمام السذج بمقالة الانجيل « لا يدخل فى ملكوت الله غنى » ، ويعلمون أن قيصر الذى باركوه لا يمكن أن يكون مباركا ، لأنه لا يدخل ملكوت الله . وهل هنالك أشقى وأتعس ممن طرد من رحمة الله ؟ ان هؤلاء الآباء يكذبون على قيصر حين يباركونه ، وهو يكذب عليهم حين يقبل أيديهم وأرجلهم ، أو يركع بين أيديهم ويمسح فى حركة تمثيلية أو هيستيرية الصلبان المدلاة من أعناقهم ، فيقبلها فى رهبة مزعومة .. لأنه يريد بما يصنعه كسب رضاهم ليكسب معه رضا الدهماء من العامة الذين لا يعرفون عن المسيح والمسيحية شيئا .. الا أنهم ولدوا مسيحيين . ولكنها المصالح المشتركة التى قوامها المــال والسيطرة ومتع الحياة جمعت بين الساسة والكنيســة ، فكان الاستشراق والتبشير من أجل تحقيق المصالح المشتركة هــذه .

ومما هو جدير بالذكر أن نرى الآن حركة قساوسة العالم الثالث التى تستهدف اقامة اشتراكية أمريكية لاتينية وطنية . وهى تضم ٤٠٨ من قساوسة الكاثوليك فى الأرجنتين البالغ عددهم خمسمائة . ويسمى هؤلاء القساوسة : القساوسة الليبراليين (التحرريين)(٣) . أليس هذا خوضا فى سياسة دنيا الناس ، لا رياضة فى ملكوت الروح الذى جاء يدعو اليه السيد المسيح !!

---

(٣) الاهرام ١٩٧٢/٨/٢١

ان المسيح رفض ان يكون غير قومه ـ وهم الاسرائيليون ـ فى نطاق المسيحية ، رفض التبشير خارج بنى اسرائيل ٠٠ ولكن زور تاريخـه ، وزورت عليه ديانته حتى تخدم أغراض وشهوات ومطامع الآباء والملوك والرؤساء ٠ بل ان المسيحية طورت لخدمة الدنيا ، لأنها فى طبيعتها لا تصلح لازدهار دنيا ، وانبات مدنية ٠ فلقد مات المسيح ـ أو رفع كمـا هو رأى الجمهور ـ وماتت أو رفعت معه تعاليمه ، ولذا قال المسيحى الواعى المتحرر الفيلسوف « نيتشة » فى سخرية : « ان المسيحى الوحيد مات على الصليب » ٠

ولا أدعك لهذا القول الذى تخاله غريبا فى حيرة ، ولكننى أبـادر فأضع يدك على الدليل القاطع لكيلا تحتار ولتعرف كيف ينقض المبشرون قول الانجيل بعملية التبشير ٠٠ بل وبادخال أوروبا فى دين المسيح ٠٠ فلقد جاء فى انجيل « متى » الاصحاح ١٥ ما نصه :

« ثم خرج يسوع من هناك ٠ وانصرف الى نواحى صور وصيداء ٠ واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ٠ وصرخت اليه قائلة : ارحمنى ياسيد يا ابن داوود ٠ ابنتى مجنونة جدا ٠ فلم يجبها بكلمة ٠ فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقـال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ٠٠ فأتت وسجدت له قائلة : ياسيد ، أعنى ٠ فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب الضالة ٠ فقالت : نعم ياسيد ، والكلاب أيضا تأكل من الفتـات الذى يسقط على مائدة أربابها » ٠٠

ولم يكن فى وسع بولس الرسول واخوانه أن يبشروا بمسيح منتظـر بين اليونان والرومان يخلص بنى اسرائيل من شر الرومان الذين قتلوا المسيح ، فلا جرم أن تحولت الدعوة من اسرائيلية خاصة الى رومانيـة عالمية لهذه الضرورة التى لا محيص عنها ، واضيف الى انجيل متى أكذوبة : « اذهبوا وعلموا جميع الأمم » ٠

ثم هى ضرورة الوثنية فى الامبراطورية دفعت الى استصلاحهـا بالمسيحية ، فهى مهما تكن كانت خيرا من الوثنية ٠

فانتشار المسيحية اذن بعد هذا النص الواضح ، والتبشير بها مباشرة كما يفعل المبشرون المستعلنون ـ أو بأسلوب خفى يأخذ ـ زيفا وزورا ـ صورة البحث العلمى كما يفعل المستشرقون ... **ليس عملا** يحبه المسيح وانما يناقضه ويضاده ، وانما هو اذن عمل لظروف سياسية اغتنمها الرومان .. ثم جرى مجراهم من وراءهم .. والدعوة الى المسيحية عمل سياسى بحت يناقض طبيعة المسيحية وما جاء فى الانجيل . لأنها دعوة جاءت لاستصلاح اليهود الجشعين فقط ـ بروحانية حاسمة لتصنع ما يشبه رد الفعل للمادية اليهودية الجشعة .

***

● هل تصلح المسيحية للبشرية الآن ؟

لقد كان للمسيحية عصرها ومجتمعها الخاصان وقد انتهيا .. فبقاؤها لا مفهوم له الا محادة الله والمسيح ، والاضرار بالجماعة البشرية . قال فيلسوف الاجتماع الشهير « جان جاك روسو » وهو مسيحى لحما ودما : « ويقولون لنا . انه اذا وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فانهم يؤلفون مجتمعا هو أكثر المجتمعات التى نتصورها كمالا . وانا لا أرى فى هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة .. وهى أن المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعا بشريا . بل اقول أيضا : ان هذا المجتمع المزعوم لن يكون ـ رغم كل كماله ـ أقوى المجتمعات ولا أدومها .. فبقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه فى كماله ذاته » .

ثم قال : « انى أخطىء اذ أتحدث عن جمهورية مسيحية . فالكلمتان متناقضتان .. ان المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة ، وروحها ملائمة أكثر مما ينبغى للطغيان ، ويستغل الطغيان دائما هذه الحقيقة الصالحة : ان المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيدا »(٤) .

وما قاله « روسو » يصدقه الانجيل نفسه اذ يقول ما نصه : « قد سمعتم انه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما انا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل

(٤) العقد الاجتماعى لعبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحد فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : احبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم (متى : الاصحاح السادس) .

ثم قال روسو : « ان المسيحية ـ بدلا من أن تربط قلوب المواطنين بالدولة ـ تبعدها عنها ، باعتبارها من أشياء الدنيا ، ولست أعرف شيئا أكثر تناقضا مع الروح الاجتماعية من ذلك(٥) .

ان المسيحية دين روحانى تماما لا تشغله سوى أمور السماء وحدها . فوطن المسيحى ليس فى هذا العالم . وصحيح أنه يقوم بواجبه ، ولكنه يقوم به بعدم اهتمام ،وعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعهد به اليه أو فشله ، فهو ـ اذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه ـ لا يهمه كثيرا أن يسوء الحال أو يحسن على الأرض ، فاذا ازدهرت الدولة فانه لا يكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة ، ويخشى أن يفخر بمجد بلاده ، واذا هلكت الدولة بارك يد الرب التى ألقى ثقلها على شعبه » .

ثم قال : « ويجب فى هذه الحال أن يكون جميع المواطنين ـ بلا استثناء ـ مسيحيين صالحين على السواء ، حتى يسود السلام المجتمع ، ويعم التوافق . ولكن اذا وجد ـ لسوء الحظ ـ رجل واحد طموح ، مراء واحد كـ «أتلينا» مثلا ،أو كروموبل،فانه سيجد ـ بلا ريب ـ سوقا رائجة فى مواطنيه الأتقياء . فاذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض نفسه على مواطنيه،ويستولى بخدعة ما على جزء من السلطة العامة فسرعان ما يصير صاحب سلطان ، وارادة الله ان يطاع » . ثم افترض سؤالا وأجاب عنه فقال : « ويقال لنا : ان الجنود المسيحيين ممتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من يثبت لى ذلك . أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية . وسيذكر لى البعض الحروب الصليبية ولكن ـ دون أن أناقش قيمة الصليبيين ـ أقول : انهم لم يكونوا مسيحيين .

---

(٥) النبى محمد لعبد الكريم الخطيب ص ٤٤٥ .

بـــل جنــود القساوســـة ومواطنـــى الكنيســـة • فالوطن الذى قاتلوا من أجله كان وطنـــا روحيا • ولســـت أدرى كيف جعلته الكنيسة زمنيا »(٦)
(أى كيف استغلت ثمرة دماء وأرواح أزهقت من أجل الروح المتساميـــة عن أوحال المـــادة ليقام بأشلائها وعظامها بناء مجتمع مادى رخيص ؟!) •
هذه كلمات أحد أساطين علم الاجتماع وائمته •• وشهد شاهد من أهله ، ولا مطمع لى فى تجلية هذه الحقيقة أكثر مما قاله أهلوها •• ولكنا نقول : أما آن لمن يثقون بعقولهم ويعتزون بكرامتهم أن يكونوا مع الانصاف ويتشحوا بالشجاعة الأدبية فيقولون بكل قوة:آمنا بالله ربا وبمحمد نبيا واماما هاديا ، وبشريعته منهاجا قويما • ثم يكون ولاؤهم حقا وصدقا لله ولرسوله ولكتابه؟ ان كانوا كذلك فقد بدأوا طريق السعادة الذى أوله هنا وآخره فى مقعـد صدق عند مليك مقتدر •

* * *

---

(٦) العقد الاجتماعى ـ ص ٢٣٥ وما بعدها •

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثالث : الشبهات المشتركة بين المستشرقين

(٥٥ ـ ١٠٠)

الصفحة

الصفحة

